الشخصية في أدب نجيب محفوظ

رواية بداية ونهاية .. نموذجًا"

د/ نجوي معتصم أحمد إبراهيم

(المدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب – جامعة بني سويف)

ملخص البحث

مشكلة البحث: تتبلور مشكلة هذا البحث في الإجابة على السؤال الآتي: هل أحداث رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ تعتمد على سمات شخصياتها، أم أن حبكة الرواية هي التي فرضت نفسها على الشخصيات؟.

أهمية البحث

- مهم لكل المهتمين والعاملين في الحقل الأدبي، ومهم للمجتمع بصفة
- رواية بداية ونهاية تتناول عدة شخصيات متنوعة في الخصائص.

أهداف البحث

- التعرف علي سمات الشخصيات الروائية في الرواية عينة البحث.
- التعرف على القضية التي أراد نجيب محفوظ طرحها في الرواية عينة البحث وكيفية طرحه وتقديمه لهذه القضية.

حدود البحث: تناول رواية "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ.

نوع البحث ومنهجه : البحث من البحوث الوصفية في تحليل المضمون

مجتمع البحث : هو جميع الروايات التي قام بتأليفها نجيب محفوظ

عينة البحث: اختارت الباحثة رواية "بداية ونهاية" اختيارًا عمديًا

نتائج البحث

- رواية بداية ونهاية مبنية على شخصياتها وعلى حبكتها أيضاً.
- تمتاز رواية بداية ونهاية بالدقة في التصميم والبناء، وخاصة في طريقة السرد وبناء شخصياتها.
- كل تفاصيل الرواية عينة البحث هي تفاصيل موضوعية تنصهر في بوتقة واحدة تشكل في النهاية الموضوع الرئيس للرواية.
- أبرزت الرواية – عينة البحث– أهمية عاملي الوراثة والتنشئة الاجتماعية في تكوين شخصية الفرد.
- استطاع نجيب محفوظ في روايته، عينة البحث، أن يروع عقول القراء بأسلوبه الشيق والرصين وكلماته السهلة والرقيقة، وأصالة تعبيره عن حقائق النفس البشرية.
- استطاع نجيب محفوظ أن يغوص في أعماق النفس البشرية لشخصيات روايته واستخرج مكنوناتها للقارئ.
- جميع شخصيات الرواية –عينة البحث– أبدعها نجيب محفوظ لكي تُخدم على شخصية حسنين.

- اعتمد نجيب محفوظ في سرده لروايته هذه – عينة البحث – على تقنية الأصوات المتعددة، وإن كان الاعتماد الرئيس في السرد علي صوت المؤلف ذاته.
- إن الهم الرئيس الذي يشغل نجيب محفوظ في أدبه هو الإجابة على سؤال دائم طرحه في أغلب أعماله الروائية، وهو "ما هي حياتنا وما يجب أن تكون عليه؟.

Research Summary

The problem of research: The problem of this research is crystallized in the answer to the following question: Are the events of the story of the beginning and end of Naguib Mahfouz depends on the character traits, or is the plot of the novel that imposed itself on the characters?.

research importance

- is important for all interested and working in the literary field, and important to the community as

- A novel beginning and end dealing with several different characters in characteristics.

research goals

Identify the features of the characters in the novel sample research -

- To identify the case that Naguib Mahfouz wanted to put into the novel the sample of the research and how to put it and submit it to this issue

Limitations of the research: dealing with the novel "beginning and end" of Naguib Mahfouz.

Research type and methodology: Research from descriptive research in content analysis

The research community: is all the novels written by Naguib Mahfouz

Research Sample: The researcher chose the novel "beginning and end" as a deliberate choice

research results

- A novel beginning and end based on her characters and her love as well.

- The novel start and end accurately in the design and construction, especially in the method of narration and character building.

-Each detail of the novel's sample research is the details of an objective fused into a crucible that ultimately forms the main theme of the novel

- The novel -the research specimen- highlighted the importance of genetics and socialization in the formation of the personality of the individual.

- Naguib Mahfouz in his novel, the sample of the research, to horrify the minds of readers in his style and interesting and easy and easy words and gentle, and the originality of his expression of the realities of the human soul.

- Naguib Mahfouz managed to plunge into the depths of the human soul of the characters of his novel and extracted its instruments to the reader

- All the characters of the novel -the sample of the research- created by Naguib Mahfouz to serve on the character of Hassanein.

- Naguib Mahfouz, in his narration of this novel - the sample of the research - relied on the technique of multiple voices, although the main reliance on narration is on the author's own voice.

- The main concern that occupies Naguib Mahfouz in his literature is the answer to a permanent question posed in most of his fiction, "What is our life and what should be it?

مقدمة

إن سر عظمة وإبداع نحيب محفوظ هو أنه يعرض لمشكلات وفلسفة الحياة في أسلوب أدبي راق، وبطريقة سرد تسكن الألباب وتسحر العقول، فهو حكّاء ماهر، يستطيع أن ينقل الأحداث وكأنها صورة مرئية للقارئ، أو كأنها سيناريو مكتوب للسينما، بل من يقرأ رواياته قد يستمتع أكثر من مشاهدتها في السينما؛ نظرًا لما تتمتع به من دقة وصف الأمكنة والأحداث وما يعتمل داخل نفوس شخصيات روايته؛ لذلك لا نستطيع أن نعتبره أديبًا فقط أو فيلسوفًا فقط، بل هو يجمع بين هذا وتلك، كما أن أعماله الأدبية تخاطب البشرية جمعاء.

ولعل أهم ما يميز أدب نجيب محفوظ هو أنه يعتمد على الشخصيات في بناء حبكته، لذا نجده يهتم اهتمامًا كبيرًا ببناء شخصيات أعماله الأدبية؛ لأن "الشخصيات والمواقف هي حاملة للفلسفة وتجسيد لها"(١). وهو يقول عن ظاهرة اعتماد الحبكة الروائية عنده على بناء الشخصية الدرامية: "يرجع ذلك إلى الفسحة الرهيبة التي تتيحها لي عملية التجديد والتكرار في إعادة صياغة شخصيات جديدة، ويمكنها أن تحمل صيغًا ومدلولات وقيمًا تقعد الشخصية الواحدة عن الإحاطة بها، بل يستحيل أن تتجمع هذه الصياغة في ذات إنسانية واحدة نظرًا لتضادها وتنافرها. ومن هنا كان اجتماعي على هذا النوع من الرواية الذي يتيح لي حرية البناء والحوار والحركة، وينقل بجزئياته وخلفياته المتناثرة صورة الواقع"(٢). والشخصيات التي تناولها محفوظ في أدبه كانت من صميم الواقع المصري، وبالتحديد من الحارة الشعبية، السيد أحمد عبد الجواد في الثلاثية، وعباس الحلو في زقاق المدق، وحسنين في بداية ونهاية، وشخصية الفتوة في أكثر من عمل أدبي، وهى شخصيات شديدة الواقعية، شخصيات من قاع الحارة الشعبية المصرية، من شبرا والحسين والجمالية وخان الخليلي، وغيرها من الأماكن الشعبية؛ لذا اتسمت أعمال محفوظ الأدبية بالواقعية الشديدة في اختياره لشخصياته الأدبية وأفعال هذه الشخصيات وتوجهاتهم وردود أفعالهم ومشاعرهم المختلفة، وقد أدى هذا إلى أن أعماله الأدبية تعتمد في حبكتها على بناء شخصياتها.

لقد كان أدب نجيب محفوظ منذ رواية القاهرة الجديدة وحتى روايته قشتمر، أي منذ الأربعينيات من القرن الماضي وحتى التسعينيات منه ، وثيقة موثقة بالصورة والرمز والتخيل بحركة الحياة البشرية للمجتمع المصري في كليتها، سياسيًا واجتماعيًا وأخلاقيًّا وثقافيًا... "إنها ملحمة موسعة تعكس تحولات المجتمع على نصه الروائي وبنيته"(٣).

ولما كان الأمر هكذا، فقد ارتأت الباحثة أن تتناول شخصيات محفوظ الأدبية بالبحث والتحليل لتقف على أهم خصائص الشخصية في أدب نجيب محفوظ، معتمدة في ذلك على روايته "بداية ونهاية" كنموذج لهذا الأدب ؛ لما تتمتع به هذه الرواية من شهرة من ناحية، ومن تعدد شخصياتها الروائية الرئيسة، من ناحية أخرى ، فهي لا تعتمد على شخصية واحدة تحرك الأحداث وتنفرد بالصراع مع الآخرين.

مشكلة البحث:

يختلف كثير من نقاد الأدب ومبدعيه حول كيفية بناء العمل الأدبي، فالبعض يري أن العمل الأدبي يبدأ أولًا ببناء الحبكة أو الأحداث الدرامية ثم يبدع المؤلف شخصيات تتناسب مع هذه الحبكة وهذه الأحداث، وهناك من يري أن المؤلف يبدع الشخصيات أولًا ثم يجعلها هي التي تخلق الحبكة للعمل الأدبي من خلال سلوكها الذي ينبع من تصرفاتها، فعلى سبيل المثال يرى البعض "أن مسرحيات شكسبير العظيمة مبنية على شخصياتها، ومن هذه المسرحيات ماكبث والملك لير، وعطيل، وغيرهم"(٤). وإذا تناولنا أعمال نجيب محفوظ الأدبية بالنقد والتحليل نجد أنه يهتم بالشخصية اهتمامًا كبيرًا، لدرجة تجعل القارئ يقف حائرًا، ويتساءل: هل الشخصية هي التي خلقت الحبكة أم أن الحبكة هي التي خلقت الشخصية؟، فعلى سبيل المثال شخصية السيد عبد الجواد في ثلاثية محفوظ الشهيرة (بين القصرين، قصر الشوق، السُكرية)،أصبحت هذه الشخصية مثالًا لكل شخصية مسيطرة ومتشددة، فمثل هذه الشخصيات هي التي تصنع وتوجه دفة الأحداث وليس العكس. لذا فقد ارتأت الباحثة أن تبحث في رواية أخري من روايات نجيب – غير الثلاثية – حتى تقف على طبيعة أدبه، وهل هو حقًا يعتمد على الشخصيات أم على الحبكة في بناء أعماله الأدبية؟

من هذه المنطلق تتبلور مشكلة هذا البحث في الإجابة على السؤال الآتي: هل أحداث رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ تعتمد على سمات شخصياتها، أم أن حبكة الرواية هي التي فرضت نفسها على الشخصيات؟.

ويتفرع من هذا السؤال عدة أسئلة أخرى هي:

١- ما خصائص الشخصيات في الرواية عينة البحث؟

٢- هل بني نجيب محفوظ أحداث روايته – عينة البحث –على شخصياتها؟

٣- هل أبدع نجيب محفوظ حبكة قصته أولًا ، ثم أبدع لها الشخصيات المناسبة ؟

٤- ما خصائص الحبكة في الرواية عينة البحث؟

٥- ما خصائص السرد في الرواية عينة البحث.

٦- هل نهاية رواية بداية ونهاية منطقية ومتسقة مع سلوك شخصياتها؟

أهمية البحث

- الضرورة الأهم في النقد الأدبي لأى عمل فنى هو "الموضوع" الذى أراد الكاتب أن يناقشه أو يطرحه فى عمله، ونجيب محفوظ يطرح في أدبه موضوعات تهم المجتمع المصري. كما أن كيفية طرح أو تقديم هذا الموضوعات من الضرورات الأهم في البحث الأدبي، ونجيب محفوظ نال جائزة نوبل في الآدب؛ وعليه فإن البحث في كيفية طرحه وتقديمه لموضوعاته الأدبية مهم للغاية لكل المهتمين والعاملين في الحقل الأدبي.
- شخصيات نجيب محفوظ الروائية أثرت وتؤثر في المجتمع تأثيرًا كبيرًا ومثال ذلك شخصية السيد عبد الجواد في ثلاثية محفوظ الشهيرة، وعليه فإن البحث في خصائص شخصيات أدبه مهم للمجتمع بصفة عامة والمجتمع الثقافي والأدبي بصفة خاصة.
- رواية بداية ونهاية تتناول عدة شخصيات متنوعة في الخصائص. كما أن نهايتها وتصرف أبطالها أثار أراء مختلفة لدى المتلقين.

أهداف البحث

- التعرف علي سمات الشخصيات الروائية في الرواية عينة البحث.
- التعرف على بناء الشخصية الروائية في الرواية عينة البحث.
- التعرف على كيفية بناء الحبكة الروائية في الرواية عينة البحث.
- التعرف على القضية التي أراد نجيب محفوظ طرحها في الرواية عينة البحث وكيفية طرحه وتقديمه لهذه القضية.

حدود البحث: تناول رواية "بداية ونهاية" لنجيب محفوظ.

نوع البحث ومنهجه: هذا البحث من البحوث الوصفية في تحليل المضمون، الذي "يستهدف "تقديم الحقائق وتحديد درجة الارتباط بين متغيرات مختارة"[٥] ، كما أنه "أسلوب للبحث العلمي يسعى إلى وصف المحتوى"[٦]. ويعد هذا البحث أيضًا من البحوث الاستدلالية في تحليل المضمون، حيث يتجاوز وصف المحتوى الظاهر إلى "الكشف عن المعاني الكامنة وقراءة ما بين السطور والاستدلال عن الأبعاد المختلفة لعملية الاتصال"[٧].

مجتمع البحث : هو جميع الروايات التي قام بتأليفها نجيب محفوظ

عينة البحث: اختارت الباحثة رواية "بداية ونهاية" اختيارًا عمديًا؛ لأنها رواية تعددت فيها الشخصيات الروائية من ناحية، ومن ناحية أخرى لم يتناولها باحثون كثيرون بالنقد والتحليل من قبل.

مصطلحات البحث

الشخصية : ومصطلح الشخصية له تعريفات كثيرة، منها أن "للشخصية معنى ووظيفة وإطار من العلاقات تتجسد في النص الأدبي، والنص الأدبي يصف الشخصية بطاقتها الدلالية، بالمظهر، وبالفعل، وبالباطن، وبما تقوله الشخصيات الأخرى عنها، وبكل ما يقال عنها بطريقة مباشرة – في الحوار والتعليمات – أو بطريقة غير مباشرة"(٨). كما تعرف بأنها "ذلك التنظيم الديناميكي داخل الفرد للأجهزة النفسية الجسمية التي تحدد للفرد تكيفه مع البيئة"(٩). وتعرف أيضًا بأنها "كل ما يتيح لنا التنبؤ بما سيفعله الفرد في موقف معين، فالشخصية تختص بكل سلوك يصدر عن الفرد سواء كان ظاهرًا أو خفيًا"(١٠). كما تعرف كذلك بأنها "التنظيم الذي يتميز بدرجة من الثبات والاستمرار لطباع الفرد ومزاجه وعقله وبنية جسمه والذي يحدد توافق الفرد لبيئته"(١١). وهي "تنظيمًا داخل الفرد له قدر من الثبات والدوام لمجموعة من الوظائف أو السمات أو الأجهزة الإدراكية النزوعية والانفعالية والمعرفية والدافعية والجسمية التي تحدد طريقة الفرد المتميزة في الاستجابة للمواقف وأسلوبه الخاص في التكيف مع البيئة"(١٢).

الحبكة : المقصود بالحبكة هو التنظيم العام للعمل الأدبي، أي أنها عملية البناء الهندسي لأجزاء العمل الأدبي وربط هذه الأجزاء بعضها ببعض بهدف الوصول إلى تحقيق تأثيرات انفعالية وفنية معينة، وكل عمل أدبي لا يخلو من الحبكة؛ لأنها بمثابة الروح لهذا العمل، "والحبكة الدرامية – أو العقدة – في المفهوم الأرسطي لها بداية، ووسط، ونهاية. والاتصال بين حادثة وأخرى ينبغي أن يبنى على المعقولية والاحتمالية، كما ينبغي أن تلتزم كل حادثة – عند أرسطو – بضرورة وجودها"(١٣) .

الرواية: قالب أدبي يتناول حوادث متعددة، ومواقف متشابكة، وأشخاصًا متعددين، قد يكون طويلًا وقد يكون متوسطًا(١٤).

الزمان والمكان في رواية بداية ونهاية

تقع المسرحية في ٣٧٧ صفحة، وتدور أحداث هذه الرواية في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، وقد أوضح نجيب محفوظ زمن روايته في جملة ذكرها في ثنايا سرده لروايته ،حين قال واصفًا ما ورثه فريد أفندي: "فورث بيتًا بالسيدة زينب يدر إيجاره عشرة جنيهات شهريًا، وبلغ دخله ثمانية وعشرين جنيهًا مما يعد ثروة في عام ١٩٣٣"(١٥). أما مكان أحداث الرواية ، فتدور أغلب أحداثها في منطقة عطفة نصر الله، بالقرب من منطقة شبرا بمحافظة القاهرة. والمكان

في الرواية ذو أهمية كبيرة؛ "فالمكان ليس مقولة فلسفية مجردة يدور حولها لفظ فارغ من المعنى، بل هو فضاء يتم تخليقه وإبداعه"(١٦). "وملامح المكان وكذلك الروابط التي تذكر يمكن استنباط دلالة لها، كما تعمل بنائيًا كموضوع سردي قابل للتحليل أو كأداة من أدوات بناء الشخصية"(١٧). فالحارة مثلًا في اللغة هي الشارع الصغير، ولكنها عند نجيب محفوظ تأخذ أبعاد أعمق دلالة، فهي قد ترمز إلى العالم كله كما في أولاد حارتنا، وقد ترمز إلى المجتمع المصري كما في زقاق المدق، وقد ترمز إلى المجتمع الإنساني، في توالي عصوره، كما في الحرافيش"(١٨).

ورواية بداية ونهاية من الروايات التي يطلق عليها البعض الروايات التحليلية، "ويقصد بها تلك الرواية التي يبرز فيها جانب التحليل النفسي، حتي يكاد يطغى على بقية عناصر الرواية...؛ حيث يتصدر جانب التحليل النفسي للبطل، وحشد كل ما يمكّن من هذا التحليل ويعين عليه، من معرفة ماضي هذا البطل وبيئته، وما تكوَّن لديه من عقدة، أو ما ضج به عالمه النفسي من صراعات. حتى يختار البطل لهذا اللون من الروايات – غالبًا – من ذوي الميول النفسية غير السوية"(١٩). ولعل شخصية حسنين في بدايةو نهاية تتفق مع هذا القول تمامًا.

ملخص الرواية وفكرتها الأساسية

تبدأ الرواية بضابط يذهب إلى فصلي حسنين وحسين التلميذين في الصفين الثالث والرابع الثانوي ليستدعيهما إلى مقابلة ناظر المدرسة، الذي أبلغهما بدوره أن والدهما قد توفى وعليهما العودة إلى منزلهما فوًرا. ويعود الاثنان سريعًا إلى منزلهما وهما مذهولان؛ فلم يكن والدهما طاعنًا في السن، كما أنهما تركاه في الصباح بعد أن تناولا طعام الإفطار معه وهو بصحة جيدة. ودخلا الاثنان إلى حجرة أبيهما فوجدا جسده مُلقى على سرير الموت، فودعاه بحزن عميق، ثم خرجا من الغرفة بعد أن طلبت أمهما منهما ذلك. وغادر الشقيقان الشقة إلى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسي فوجدا أخاهما الأكبر – حسن – جالسًا في صمت وكآبة؛ فجلسا إلى جواره يشاركانه صمته وكآبته. وبدأت وفود المعزين تتوافد، وبعض سويعات قليلة ذهب الأبناء الثلاثة وبصحبتهم ثلاثة رجال فقط لدفن والدهم، حيث كان حسنين حريصًا ألا يذهب أحد من الناس إلى المقابر حتى لا يروا قبر الأسرة المتواضع.

بدأت الأم تفكر في حال أسرتها بعد موت الأب، وكيف ستسير بها الأمور بعد أن يتقلص دخل الأسرة، فالمعاش لن يكفي حتمًا متطلبات الأسرة، وخاصة أن الابن الأكبر عاطل لا يعمل، والابنين الآخرين في مرحلة التعليم، كما أن ابنتها نفيسة بلا مال ولا جمال. وباتت الأم ليلتها في حزن وقلق.

وفي مساء اليوم التالي اجتمعت الأم بالأبناء لتواجههم بالحقيقة القاسية، وهي أنهم أصبحوا فقراء معدومين، وأنهم يجب أن يعيشوا حياة التقشف، كما طلبت من حسن ضرورة أن يبحث عن عمل يكفيه على الأقل، فدخل الأسرة لن يكفيها بعد الآن، فالوالد لم يترك غير جنيهين فقط في جيبه، وراتبه سيتقلص إلى خمسة جنيهات بعد أن كان خمسة عشرة جنيه، فوعدها حسن بأنه سيبحث عن عمل. كما طلبت من نفيسة أن تعمل في مهنة الخياطة.

وفي صباح اليوم التالي مضت الأم إلى وزارة المعارف مصطحبة معها ابنها حسن لمعرفة كيفية صرف معاش زوجها المرحوم، وهناك عرفت أن معاش زوجها سيكون خمسة جنيهات فقط بعد أن كان راتبه حوالي سبعة عشرة جنيهًا؛ فتضايقت كثيرًا، كما تضايقت أكثر عندما علمت الإجراءات الكثيرة التي عليها السير فيها لصرف هذا المعاش والتي تستغرق أشهرا طوالا، وهي لا تملك مالًا تصرف منه على أسرتها طوال هذه الفترة. وتفتق ذهنا أن تذهب إلى أحمد بك يسري – صديق زوجها – لتطلب منه مساعدتها في إنهاء إجراءات صرف هذا المعاش، وبالفعل ذهبت إليه ووعدها بمساعدتها في ذلك الأمر.

كاد حسنين أن يتمرد على وضعه الجديد، بل كاد أن يكفر بالله الخالق، لولا أن أخيه حسين كبح جماحه وهدأ من روعه قائلًا: "هذا حق ولكني لم أنتزع الله من قلبي. والحق أننا نغالي في تحميل الله مسئولية مصائبنا الكثيرة. ألا ترى أن الله إذا كان مسئولًا عن موت والدنا فليس مسئولًا بحال عن قلة المعاش الذي تركه"(٢٠).

رجعا حسين وحسنين للانتظام في مدرستهما، وكان حسين على قدر المسئولية، فاعتذر لمدرب نادي شبرا لكرة القدم عن عدم قدرته هو وأخيه عن الاستمرار في الفريق لظروف وفاة والدهما. قررت الأم الانتقال من شقتهم إلى شقة أرخص في الدور الأرضي ترشيدًا في النفقات.

وغادر حسن المنزل صباح اليوم التالي مبكرًا، حتى لا يدخل في شجار مع والدته، وتوجه إلى أحد المقاهي، والتقى ببعض روادها الذين يعرفهم، ويلعب معهم القمار، وهو غالبًا ما يفوز عليهم، ثم التقى بأحد المطربين المغمورين والذي كان يعمل معه في تخته، وهذا المطرب يدعي الأستاذ علي صبري، وقد وعده علي صبري بأن يأخذه معه عندما يدخل مشروعه الغنائي الجديد، ففرح حسن.

واضطرت الأم أن تبيع أثاث غرفة زوجها المرحوم بثلاثة جنيهات فقط؛ لحاجتها الشديدة إلى المال. وعملت نفيسة بالخياطة لجيرانه مقابل أجر، بعد أن كانت تعمل هذا مجاملة لهم، وتقاضت أول أجر لها من جارتها وهو مبلغ عشرين قرشًا، وكان هذا العمل ليس على هوى نفيسة ولا أخوها حسنين. وضاق الحال بالأسرة أكثر، فاضطرت الأم إلى بيع المرآة الكبيرة

بحجرة الاستقبال بعد أسبوعين فقط من بيعها لأثاث غرفة زوجها. وأراد فريد أفندي – جار الأسرة –مساعدة جيرانه؛ فذهب هو وزوجته وطلب من الأم أن يقوم أبناها حسين وحسنين بإعطاء ابنه سالم درسًا خصوصيًا في الحساب واللغة الانجليزية، فوافقت على الفور. وذهب حسين وحسنين لشقة جارهم فريد أفندي لإعطاء الدرس الخصوصي لسالم، وهناك وقعت عين حسنين على بهية ابنة فريد أفندي؛ فوقع في غرام جمالها الرائع. وبدأ حسنين يرمي شباكة حول بهية حتى تمكن من اصطياد عواطفها، وبدأت تنجذب إليه.

ذهبت نفيسة لتحيك ملابس عروس في بيتها، وبدأت مشاعر الأنوثة تتحرك داخلها، وتمنت أن تكون عروس مثلها، فبدأت تبحث لها عن شخص يناسبها، لم تجد غير جابر سلمان، ذلك الشاب الذي يشبهها في عدم الوسامة، ولكن يعيبه أنه يعمل في محل بقالة، وبرغم ذلك اشتهته، فهي لم تجد بديلًا غيره، وبدأت تستجيب لمغازلته لها، وتقابله بعيدًا عن أعين الناس.

طلبت بهية من حسنين أن يتقدم لخطبتها إذا كان صادقًا في حبه لها؛ فوقع حسنين في حيرة من أمره، فكيف يخطبها وهو مازال بعد تلميذ في الثانوية العامة؟، ثم كيف سيحادث أمه في أمر كهذا وظروفهم المادية في الحضيض؛ فوقع في حيص بيص. ولكن بهية اقترحت عليه أن يطلب من والدها أن يذهب الأخير إلى أمه، ويطلب منها أن توافق على خطبتهما، وأكدت لها أنها سيوافق على طلبه طالما هي موافقة. وبالفل ذهب فريد أفندي ومعه زوجته (أم بهية) للسيدة أم حسن، وطلبا منها يد حسنين لابنتهما بهية؛ فوافقت الأم إرضاءً فقط لهما ولكرمهما.

ازدادت العلاقة الغرامية بين نفيسة وسلمان جابر سلمان لدرجة كبيرة، واستطاع سلمان أن يقنعها بحبه وأنه حتمًا سيتزوجها، كما استطاع أن يستدرجها إلى شقة أسرته في وقت خلت فيه من السكان، وتبادلا الغرام فيها، وأفقدها عذريتها. وتكررت لقاءات نفيسة وسلمان الغرامية، ولم تشك لحظة في أنه يحبها، وسوف يفي بوعده ويتزوجها؛ ولكن خاب ظنها، فقد عرفت أنه سيتزوج بفتاة أخرى غيرها؛ فهرعت له مذعورة ، ودعته بلهجة حادة ومخيفة إلى أن يلحق بها على الفور في مكان بعيد عن شارعهما في عطفة نصر الله، فنفذ طلبها، وتبعها، وأفضت له بما عرفت؛ فلم ينكر، فتوسلت إليه أن يصحح خطئه ويتزوجها هي؛ فاعتذر لها؛ فألقت عليه نظرة حامية وقد أثارتها لهجته الأسيفة لحد الكراهية القاتلة وقالت بصوت مرتعش:

– حزين وآسف ، يا لك من مسكين! وماذا تظنني صانعة بحزنك وأسفك؟!. إن الحزن وحده لا يصلح الخطأ، فماذا تظنني صانعة بحزنك؟ لقد أوقعتني في ورطة قاتلة فلا يجوز أن تدعني وحدي وتهرب: ألا تفهم هذا؟"[٢١].

غير أن توسلات نفيسة لم تجد صدى عند سلمان؛ فقالت له بحقد وهي تكظم عواطفها الثائرة:

– ارفض هذا الزواج. لا نجاة لي إلا بهذا.. [٢٢].

ورفض سلمان طلبها هذا، وقال لها: "ليس في وسعي هذا"[٢٣]. وتوسلت له أن يرفض هذا الزواج ويتزوجها هي، ولكنه أصر على رفضه، "فسحبت يدها بعنف وهوت به بقبضتها على وجهه بقسوة، مرة وأخرى، حتى رأت الدم يسيل من أنفه... وهجمت عليه مرة أخرى ولكنه دفعها في صدرها وصاح بها في هياج أحدثه الذعر:

– لا تلمسيني. لم أجبرك على شيء. لقد ذهبت معي إلى البيت راضية.[٢٤]

قال جملته الأخيرة هذه وابتعد عنها ثم دار عقبيه ومضى مهرولًا كأنه يفر فرارًا. ومرت أيام وتعافت نفيسة من الصدمة، بدأت تستجيب لمعاكسة سايس جراج بالمنطقة، وقررت أن تستجيب له ومارست معه الجنس، بدافع من الرغبة الجنسية التي استحوذت عليها، بالإضافة إلى أنها أيقنت أنه لم يبق لها شيء تبكي عليها.

مرت أسابيع وأدى الشقيقان امتحان النقل في ختام العام الدراسي، وكلل اجتهادهما بالنجاح، فانتقل حسين إلى السنة الخامسة، وحسنين إلى السنة الرابعة. كان يعلمان أنه لابد من النجاح؛ لأن حال أسرتهما لا يحتمل العثرات.

أما حسن فقد فرضَّ نفسه فرضًا على جابر سلمان ليغني في فرح ابنه سلمان مقابل خمسة جنيهات هو وتخته. ثم عمل في ملهى شعبي أقامه الأستاذ حسن صبري، ولكنه عمل غير مستقر، وذاع صيته كبلطجي المنطقة بعد أن تمكن من ضرب أكبر بلطجي في المنطقة، وأعجبت به سيدة ساقطة، فرافقها وعاش معها.

وانقضى عام آخر، وواصلت الحياة سيرها لا تلوي على شيء، ومضى كل فرد من أفراد الأسرة في سبيله بما يلقى من خير وشر. وقد ساءت أحوال الأسرة أكثر وأكثر، فقد باعت الأم كل أثاث الشقة تقريبًا، "ولم يبق بحجرة الاستقبال إلا كنبة وبساط باهت ناحل كان مفروشًا بحجرة نوم الأم ثم وضعوه بحجرة الاستقبال بعد بيع سجادتها، واقتصرت غرفة الأم على كنبتين يستعملان نهارًا للجلوس وليلًا للنوم، وخلت الصالة – حجرة السفرة قديمًا – فبيع البوفيه والمائدة والكراسي، وانتهى بهم الحال إلى تناول طعامهم على صينية، بل بيع فراش حسن، ولولا الضرورة القصوى لبيع الفراشان الباقيان"[٢٥]. أما عن أحوال حسن "فلم تتعد معونته لأسرته زيارات متباعدة كانت للأسرة بمثابة المواسم يطيب لها فيها الطعام والأمل"[٢٦].

وفي نهاية العام حصل حسنين على البكالوريا، وقرر أن يكتفي من تعليمه بهذه الدرجة، ويبحث عن وظيفة حتى يساعد أسرته، وذهب مصطحبًا أخيه حسنين إلى أحمد بك يسري ليعينه على البحث عن وظيفة، وبالفعل أوجد له وظيفة كاتب في مدرسة، ولكن في مدينة طنطا. وسافر حسين إلى مدينة طنطا بعد أن ذهب إلى أخيه حسن ليساعده في نفقات معيشته في طنطا حتى يحصل على راتب الشهر الأول من وظيفته؛ حيث أعطاه حسن أربعة أساور ذهبية خاصة برفيقته. وفي طنطا سكن حسين في أحد الفنادق أول شهر، ثم انتقل إلى شقة صغيرة فوق سطوح المنزل الذي يقطن فيه رئيسه بالعمل "حسان حسان حسان". وبدأ حسان يتقرب من حسين حتى يزوجه لابنته إحسان. وكاد حسين أن يرضخ لطلب حسان ويتزوج ابنته لولا ذهاب أمه إليه في طنطا وتذكيره بالأمانة التي في رقبته، وهي رعايتها ورعاية أخته وأخيه، فصرف نظر عن موضوع زواجه من ابنة رئيسه:

– أنت لا تدري من أمر الناس شيئًا. ولعل جيرانك أناس طيبون ولكنهم لا يحفلون إلا بمصلحتهم. وإذا حافظت على جيرتهم كرهتنا وأنت لا تدري [٢٧].

وحوالي منتصف الصيف استقبلت الأسرة – بعطفة نصر الله – يومًا سعيدًا حين نجح في امتحان البكالوريا. وأصر حسنين أن يلتحق بالكلية الحربية بالرغم من أن "مصروفاتها سبعة وثلاثون جنيهًا"[٢٨]، ولكن حسن وقف بجوار أخيه ومنحه مصروفات الفصل الدراسي الأول بالرغم ظروفه المادية الصعبة التي تبلغ عشرون جنيهًا دفعة واحدة:

– عشرون جنيهًا؟.. إن جيشنا كله لا يساوي هذا المبلغ!.. هل تنوي الالتحاق بمدرسة اللواءات؟

هكذا كان رد فعل حسن علي طلب أخيه حسنين، ورغم انزعاجه الشديد هذا، إلا أنه أردف قائلًا لحسنين:

– ... لا تنزعج سآتيك بما تريد ولو قتلت قتيلًا ونشلت محفظته[٢٩].

والتحق حسنين بالكلية الحربية بمساعدة أحمد بك يسري. وبدأ حياة جديدة، وبدأ يتنكر لخطيبته، ولأخيه حسن، بل تنكر لماضيه كله، وازداد هذا النكران بعد أن تخرج من الكلية الحربية وأصبح ضابطًا في الجيش:

– ليتنا نستطيع أن نمحو الماضي من الوجود..[٣٠]

وتمادت نفيسة في انحرافها حتى أصبحت تمارس الجنس مقابل المال، ولم تعد تفرق بين الجنس من أجل المتعة والجنس من أجل المال، فالاثنان صارا عندها سواء.

وذهب حسنين إلى أخيه حسين في طنطا ليشكوه أخيهم حسن، ويطلب منه النصح في كيفية التعامل معه، غير أن حسين طلب منه ترك حسن في حاله؛ فهو لن يتغير. وعادا الاثنان إلى القاهرة، وأثناء تناولهما الغذاء مع أمهما وأختهما دق الباب الخارجي، وفتحت نفيسة الباب؛ فوجدت ضابط وعساكر؛ حيث جاءوا يفتشون على أخيهم حسن المطلوب للعدالة:

– نحن نبحث عن حسن كامل على الشهير بالروسى![٣١].

وانزعج حسنين انزعاجًا شديدًا، وثار ثورة عارمة، وأصر على ترك المنطقة كلها والانتقال إلى مكان آخر، حتى يتجنب الفضيحة التي سببها له أخيه حسنين:

– إن الحي كله يتحدث عن فضيحتنا..[٣٢]

وبالفعل تركت الأسرة عطفة نصر الله وانتقلت إلى شقة مستأجرة في حي مصر الجديدة. كما فسخ حسنين خطوبته من بهية دون مبرر مقنع بعد أن ثلاث سنوات من الخطوبة، الأمر الذي كان مثار دهشة:

– لقد خطبتها ثلاث سنوات فكيف يليق أن تهجرها بلا سبب مقنع[٣٣].

وبعد أن تركها حسنين ، ذهب حسين مسرعًا إلي بيتها ليخطبها لنفسه؛ حيث كان يحبها منذ أن وقعت عينه عليها، وقد رحبت به هي ووالديها. وبعدها سافر إلى عمله في طنطا وهو في غاية السعادة. أما حسنين فذهب، متسرعًا كعادته، ليخطب ابنة أحمد بك، غير أن طلبه قوبل بالرفض والسخرية. وبعدها استدعاه ضابط القسم ليخبره أن نفيسة أخته قد تم ضبطها في شبكة منافية للآداب، فيقرر حسنين قتلها إلا أنها تطلب منه أن تنفذ هي حكمه بالقتل عليها بنفسها، حتى لا يقع تحت طائلة القانون وحتي لا يعايره الناس، ونفذت هي حكم الإعدام على نفسها، فقذفت بنفسها في النيل وماتت على الفور. ولما رآها على هذه الحالة انتابته لوثة عقلية وقرر الانتحار هو الآخر، وقذف بجسده في نفس المكان التي قذفت نفيسة نفسها فيه، وانتهت أحداث الرواية بقولة وهو يقذف بنفسه: "إذا أردت هلم. لن أصرخ. فلأكن شجاعًا ولو مرة واحدة. ليرحمنا الله.."[٣٤] .

تستنتج الباحثة من السطور السابقة أن القضية أو الموضوع الذي أراد نجيب محفوظ طرحه في روايته بداية ونهاية هو: موضوع فلسفي يناقش قضية الحياة والموت، وأن الله إذا كان مسئول عن موت الإنسان، فإنه عز وجل ليس مسئولًا عن كيف عاش هذا الإنسان حياته الذي سيحاسبه الله عليها"، كما أن محفوظ يرى أن الحياة ما هي إلا أكذوبة كبيرة؛ حيث قال على لسان حسنين: "حقًا إن الحياة أكذوبة ضخمة"[٣٥]، كما لعنها حسنين أيضًا بقوله : "... إني

أمقت الحياة جميعًا. أما من حياة غير هذه الحياة"[٣٦]. كما قال على لسان نفيسة: "والغالب أن الدنيا كذبة كبيرة"[٣٧]، وفي موضع لاحق قالت: "من أجل هذا تستحق الدنيا أن تكون طعمة للنيران"[٣٨]، ولعن الحياة على لسان حسين؛ حيث قال: "شيء واحد يستحق اللعنة، هو الحياة. الحياة والحظ.. والوالدان اللذان أتيا بنا إلى هذه الدنيا"[٣٩] . وقد قدمَّ المؤلف موضوعه هذا من خلال فكرة منطقية خلاصتها: "الطموح المتسرع الذي يقترن بالغرور يؤدي إلى هلاك صاحبه". وهذا هو موضوع هذه الرواية – كما رأته الباحثة –، والموضوع هو الضرورة الأهم في النقد الأدبي، أما عن كيفية طرح أو تقديم هذا الموضوع الذي يناقش فلسفة الحياة؛ هذا ما سيحاول هذا البحث معرفته من خلال تحليل الرواية عينة البحث تحليلًا فنيًّا ونقديًا؛ "فالعمل يجب أن يفهم لا استنادًا إلى قواعد ثابته بل استنادًا إليه من داخله وفى إطاره الخاص"[٤٠]،

علاقة دلالة العنوان بالفكرة الأساسية للرواية

للعنوان دلالة كبرى فهو الذى يشد انتباه القارئ، وهو الذى يقود فكره حين يبدأ القراءة، سواء وضعه المؤلف قبل بدء الكتابة أو بعد الفراغ منها، "فهو الذى يوجه الأحداث فى المسرحية، بحيث إذا غيّر المؤلف عنوان عمله، فإنه قد يضطر إلى إجراء بعض التعديلات الداخلية في المسرحية حتى تتوافق مع العنوان"[٤١]. وقد وضع نجيب محفوظ عنوانًا لروايته أسماه "بداية ونهاية". وتري الباحثة أن محفوظ يرمز بهذا الاسم إلى الموت؛ حيث بدأ روايته بالموت – موت الأب – ونهاها بالموت (موت الابن حسنين والابنة نفيسة)، وكأنه يقول أن سرّ الحياة هو الموت. وفي حدث آخر عندما دخل حسين وحسنين على أبيهما وهو على فراش الموت، وقف حسنين حيال الموت محتجًا ثائرًا، ولكن في نفس الوقت خائفًا يائسًا، وبدأ عقله يفكر في الحياة قائلًا لنفسه: "ليس هذا بأبي. لا يمكن أن يسمع أبي هذا البكاء كله دون أن يتحرك. رباه لماذا يجمد هكذا؟ إنهم يبكون ولكن في تسليم من لا حيلة له. لم أكن أتصور هذا، ولا أتصوره. ألم يمشي في هذه الحجرة منذ ساعتين؟ ليس هذا أبي. وليست هذه حياة"[٤٢]. ومثال آخر يبرهن على وجهة نظر الباحثة في هذا الصدد هو لحظة الوداع الأخير للأخوين حسين وحسنين لأبيهما؛ حيث مرَّ بصرهما الحائر بساعة الراحل على خوان غير بعيد من الفراش، "لا تزال تدور باعثة دقاتها الهامسة، ولعل الراحل قد قرأ فيها آخر تاريخ له في الدنيا وأول عهدهما باليتم"[٤٣]؛ ولعل نجيب محفوظ كان يقصد بالعبارة السابقة بداية الحياة ونهايتها.

إن الدنيا في نظر محفوظ هي والعدم سواء؛ حيث يستطرد ويقول في روايته واصفًا لحظة موت كامل علي ووداع ابنيه حسين وحسنين له: "وهذا قميصه على المشجب وقد لاحت أثار عرقه ببنيقته، فرنوا إليها بحنان عميق، وقد بدا لهما في تلك اللحظة أن عرق الإنسان أشد ثباتًا

من حياته العظيمة"[٤٤]. ولعل فكرة هذه الرواية شبيهة بنفس فكرة رواية حديث الصباح والمساء لنجيب محفوظ أيضًا، وهي أن سرّ الحياة هو الموت، فالدنيا في نظر محفوظ هي والعدم سواء،. ولعل وصف حسنين لموت أبيه بكلمة انتهي علي لسان حسنين وأنها كلمة بشعة، كما أن تساؤله عن ماهية الموت يبرهن علي صحة كلام الباحثة في هذا الصدد: "وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل حجرته مجففًا يديه بمنشفته. ثم انتهى، انتهى، أبشع بها من كلمة... ما هو الموت؟. لا أستطيع أن أصدقه. انتهى؟! لو كنت أعلم أن هذا آخر ما بقى لنا من عمره ما غادرت البيت. من أين أن أعلم؟. أيموت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق"[٤٥]. وفي موضع آخر يصف حسنين الموت بالنهاية؛ حيث يقول نجيب محفوظ على لسان حسنين بطل روايته بداية ونهاية: "وقد دفعه الموت إلى التفكير ولكنه لم يطل به، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة: "هل الموت هو النهاية؟. ألا يبقى من أبي إلا التراب ولا شيء وراء هذا؟. معاذ الله. لن يكون هذا. معاذ الله. لن يكون هذا. إن كلام الله لا يكذب"[٤٦]. والسطور السابقة تؤكد أن نجيب محفوظ يقصد بأن روايته تناقش فكرة الحياة (بداية ميلاد الإنسان) والموت (نهاية حياة هذا الإنسان).

نقطة الهجوم في الرواية

وهي الحدث الذي يبدأ فيه الصراع الفعلي للرواية، وغالبًا ما تبدأ بعد مرور فترة من أحداث الرواية ، بعد التعريف بالشخصيات وبالزمان والمكان التي تقع فيهما الأحداث ، وهذه الفترة يجب ألا تتعدى ثلث زمن الرواية وإلا أصابت الرتابة الرواية وأصيب القارئ بالملل، وقليل من الكتاب الذي يدلف سريعًا إلى نقطة الهجوم، ويندر بشدة من يبدأ أحداث روايته بنقطة الهجوم نظرًا لصعوبة هذا الأمر. وقد استطاع نجيب محفوظ أن يبدأ أحداث روايته بنقطة الهجوم، وهي اللحظة التي مات فيها الأب، حيث انقلبت حياة الأسرة رأسًا على عقب بموت عائلها الوحيد؛ فقد كانت الحياة تسير طبيعية لهذه الأسرة التي تتكون من الأب كامل علي والأم وأربعة أبناء هم بالترتيب: حسن ونفيسة وحسين وحسنين، وعندما مات الأب الذي كان يعمل موظفًا حكوميًا وراتبه – الخمسة عشرة جنيهًا– يكاد يكفي نفقات أسرته، تبدل الحال تمامًا بعدما تحول الراتب إلى معاش لا يزيد عن الخمسة جنيهات شهريًا.

السرد في الرواية

بداية، يصعب التعامل مع الرواية بوصفها كتلة لغوية واحدة لضخامتها النصية، وتعدد النسيج اللغوي بها، كما أن اللغة في الرواية ليست هدفًا في حد ذاتها، كما في الشعر مثلا، بل

هي وسيلة مهمة عليها أن تتشكل وفق مقتضيات السرد. "والسرد في الرواية نوعين، هما: سرد الراوي لأحداث القصة، وسرد الراوي المتماثل مع الحدث التاريخي"(٤٧). "وكل رواية تبنى على أنماط ملفوظية أربعة: ملفوظ سردي، ملفوظ وصفي، ملفوظ خطابي، وملفوظ شفهي(٤٨). وتوضح الباحثة أن المقصود بالملفوظ السردي هو سرد الأحداث والشعور، والملفوظ الوصفي هو وصف الأماكن والمواقف، والملفوظ الخطابي هو المونولوج، أما الملفوظ الشفهي فهو حوار شخصيات الرواية.

وترى الباحثة أن طريقة وأسلوب السرد يختلف من راوي إلى آخر ، بل من رواية إلى أخرى؛ فالسرد – من وجهة نظر الباحثة – هو شكل فنيّ ، والشكل يختلف من كاتب إلى كاتب آخر، بل من عمل أدبي إلى عمل أدبي آخر؛ فكل عمل أدبي له شكله الخاص به؛ فالعمل الأدبي هو عمل فني في المقام الأول، والفن ليس له تركيبة معينة تصلح لكل زمان ومكان؛ ففي الفن ليس هناك ما هو عام وانما هناك دائمًا ما هو خاص.

وقد استخدم محفوظ اللغة العربية الفصيحة في سرده لأحداث روايته ، حتى الجمل الحوارية جعلها محفوظ لغة فصيحة وليست عامية. وعن هذا يقول محفوظ: "لقد كانت حياتي الأدبية كلها عبارة عن اجتهاد مستمر لتطويع الفصحى للفن الروائي الحديث. لذلك كانت البدايات متعثرة إلى حد ما، حيث كان الأسلوب لا يتماشى ومنطق شخصيات الرواية التي كانت تتكلم العربية الكلاسيكية وما تحويه من فخامه. وبعد ذلك في أعمالي التالية بدأت الكتابة تتحرر وبصفة خاصة في لغة الحوار، وأحيانًا كنت استخدم لفظين مختلفين للتعبير عن شيء واحد، لكن أعتقد الآن بأنني توصلت إلى نوع من الأسلوب الفصيح الذي تحسبه عاميًا لفرط بساطته"(٤٩).

وقد استطاع نجيب محفوظ أن يرسم للقارئ صورة مرئية غاية في الدقة والجمال، وكأن القارئ يشاهد دراما سينمائية وليست رواية يقرأها، فقد اتسم السرد في الرواية – عينة البحث – بالرشاقة والاقتصاد في العبارة والدقة في الوصف والتعبير عن الموقف وعن مكنون الشخصية، الأمر الذي يجعل القارئ يعيش مع عالم الشخصية الخارجي والداخلي معًا. فمثلًا : نقل لنا المؤلف في كلمات بسيطة وموجزة صورة الحي الذي تعيش فيه أسرة كامل على؛ حيث روى قائلًا: "وانتبه على أخيه وهو يجذبه من ذراعه إلى عطفة نصر الله التي كاد يفوتها في ذهوله. وسارا في طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات الغاز والخضر والفاكهة. وسبقهما البصر إلى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل الترب"(٥٠).

وقد خانت بعض الألفاظ اللغوية نجيب محفوظ في سرده للرواية، فمثلًا: عندما ذكر حسين أنه حيا أبيه حين شاهده أخر مرة قبل وفاته قائلًا: "صباح الخير يا بابا"(٥١) ؛ فكلمة "بابا" ليست لغة عربية فصيحة بل هي لغة عامية، ونجيب محفوظ لم يتعمد استخدام العامية في هذا اللفظ بدليل استكمال نفس الحوار باللغة العربية الفصحى، وذلك عندما أجاب الأب قائلًا: "صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟"(٥٢).

ونجيب محفوظ اعتمد في سرده لروايته هذه – عينة البحث – على تقنية الأصوات المتعددة، حيث مزج بين وصفه هو للأحداث وبين وصف الشخصيات لنفسها ولبعضها البعض، وإن كان الاعتماد الرئيس في السرد علي صوت المؤلف ذاته؛ حيث يسهل على القارئ أن يتبين صوت الرواي من شخصية إلى أخرى دون علامة مميزة. وقد نجح في وصف الظاهر من شخصيات روايته وما يجيش بداخلها نجاحًا مبهرًا. ويتضح هذا في أكثر من موضع من الرواية. كما نجح المؤلف في عبور الأزمنة والأمكنة والرؤى دفعة واحدة.

وتري الباحثة أن نجيب محفوظ استطاع في روايته عينة البحث أن يروع عقول القراء بأسلوبه الشّيق والّرصين وكلماته السهلة الرقيقة، وأصالة تعبيره عن حقائق النفس البشرية؛ التي توقف التفكير وتشل العقل بحيث يتقبل القيم التي تعرضها الرواية دون إمعان فكر؛ فهو لم يقتصر على مجرد وصف أحداث ومناظر تربط بينها عبارات تفسيرية سطحية، بل غاص في أعماق النفس البشرية لشخصيات روايته واستخرج مكنوناتها للقارئ سواء كانت هذه المكنونات سلبية أو إيجابية، شريرة أو خيره. ولعل هذا هو السبب في شهرة أدب محفوظ، واستحواذه على إعجاب أغلبية قراء الأدب بفنّه الأدبي.

الحبكة الروائية

الحبكة كما يعرفها أرسطو هي "بنية التفاعل أو ترتيب الأحداث للقصة . ويتطلب أن يكون في الحبكة بداية ووسط ونهاية – يتم فيها الوصول إلى حلّ للأحداث"(٥٣). وقد ارتكز نجيب محفوظ في حبكته الروائية على الحدث الروائي؛ "فالحدث هو العمود الفقري في العمل الأدبي، الروائي منه والتمثيلي أو الدرامي، وعليه ترتكز الجوانب المختلفة للعمل الفنيّ سواء كانت الشخصيات أو الحبكة أو البناء العام"(٥٤). والحدث الروائي عند نجيب محفوظ لا يعنى بالضرورة الحركة البدنية سواء أكانت هادئة أم عنيفة، فقد كانت لغة الصمت – لحظات الصمت– فى رواية بداية ونهاية مفعمة بالحدث الروائي.

كما أنه "لا حبكة بدون صراع"[٥٥]؛ لأن الصراع بمثابة الحياة في العمل الأدبي وخاصة الدراميّ؛ وحبكة العمل الروائي تبنى على جملة أحداث يرتبط بعضها ببعض ارتباطًا حيويًا أو عضويًا بحيث تسير في حلقات متتابعة، وهذه الأحداث أما أن تكون خارجية وهي التي تؤثر في الشخصيات أو داخلية وهي الناتجة عن الصراع النفسي والمسلك الخلقي، فالعمل الدرامي في جوهره هو "أحداث متتابعة منظمة خارجية، مترابطة ترابطًا وثيقًا مع مسلك الشخصيات، بحيث تبرر هذا المسلك تبريرًا مقنعًا"[٥٦]. أي أنها تشبه العمل الهندسي المنظم، "فالمرء لا يستطيع في الحقيقة أن يتصور بنية غير منظمة"[٥٧].

والحبكة هي الطريقة التي يسرد بها الكاتب قصته، وكيف يؤثر حدث في الآخر وكيف تتفاعل الشخصيات ولماذا؟. وهنا يصعب الفصل بين عملية رسم الشخصية وبناء العقدة حيث تتكشف الأحداث من خلال الشخصيات وبواسطتها. "والحبكة تشكل البناء المعماري الذي تبنى عليه القصة وهي خطة البطل عبر المواقف المختلفة للوصول إلى الهدف حيث تواجه الشخصية الرئيسية بمشكلة تتطور إلى صراع مع قوى مضادة، هذه القوى تعقد الموقف وتوجه الصراع نحو الأزمة التي تحل عن طريق البطل في النهاية"[٥٨].

وترى الباحثة أن رواية بداية ونهاية لنجيب محفوظ امتازت بالدقة في التصميم والبناء، وخاصة في طريقة السرد وبناء شخصياتها؛ حيث أن جميع شخصيات الرواية وأحداثها لا وجود فيها لوجدان مجرد أو تائه أو معلق في الهواء وبالمثل لا وجود فيها لفكرة مجردة أو صارخة أو خارجة عن مجرى أحداث وموضوع الرواية، فكل ما في الرواية تفاصيل موضوعية تنصهر في بوتقة واحدة تشكل في النهاية موضوع الرواية الرئيس. كما أن لا وجود للمصادفة في حبكة رواية بداية ونهاية، على الرغم أن "المصادفة ليست في كل الأحوال عيبًا، بل إنها في بعض الأحيان ضرورة، وأن الفنان الذى يبتعد عن المصادفة ويتجنب الالتجاء إليها عامدًا متعمدًا إنما يرتكب خطأ جسيمًا؛ لأنه يلغى بإرادته سببا من الأسباب الطبيعية لكثير من حوادث هذا الوجود، فالمصادفة ليست خرافة، ولكنها نتيجة قانون خفى من قوانين الحياة لم نكشف بعد سره"[٥٩]

شخصيات الرواية

يقول جان بول سارتر: "إن الإنسان هو الوسيلة التي بها تتبدَّى الأشياء"[٦٠]. والرواية من أكثر الفنون اهتمامًا بتصوير الانسان في علاقته بالمجتمع، فالرواية – في رأي الكثيرين– ملحمة العصر الحديث، "ولذا فإن تصوير الشخصيات فيها غالبًا ذو دلالة مضاعفة"[٦١]. وتقوم

حبكة رواية "بداية ونهاية" على الشخصيات التي بها، فليست بها شخصية محورية بعينها تستأثر بموضوع الرواية الرئيس، وتتولى هي عملية الصياغة الروائية من خلال همومها ومشاكلها وصراعها مع الشخصيات الأخرى في الرواية – كثلاثية محفوظ الشهيرة، حيث كانت شخصية السيد عبد الجواد تستحوذ علي النصيب الأكبر في أحداث الرواية – إنما في الرواية ، عينة البحث، نجد أن هناك عدة شخصيات مؤثرة في أحداث الرواية، ولرواية، ولكل شخصية لها تركيبتها ومقوماتها، التي تساهم في الحبكة الدرامية للرواية.

وقد نجح نجيب محفوظ أن يجعل كل شخصية في روايته "بداية ونهاية" تسير حسب طبيعتها الخاصة، ولكن في حدود الوظيفة التي تبين صلاتها مع الشخصيات الأخرى حبًّا أو بغضًا، ولاءً أو نفورًا، تعاونًا على البناء أو نزوعًا إلى الفرقة. وقد ظهرت شخصيات الرواية شبيهة تمامًا بالواقع الكبير، ولكن بشكل فنيّ مكثف.

وقد اتسم أدب محفوظ بتجسيد الشخصيات المصرية بشكل أقرب ما يكون إلى واقعها المعاش، وعن هذا يقول محفوظ: "إن تلك هي الشخصيات التي أعرفها، هي التي عايشتها في الأحياء القديمة على مدى أكثر من ثمانين عامًا الآن، هي شخصيات تحمل في وجدانها كل التراث القديم الذي كنا نتحدث عنه بخيره وبشره، وأنا لا أعرف شخصيات غيرها فمن أين أتي بشخصيات أخرى؟"(٦٢).

وليس معنى ذلك أن نجيب يعتمد في حبكته الروائية على الشخصيات ،أنه يكررها في كل عمل أدبيّ له أو في أغلب أعماله، وإنما نجد أن كل شخصياته تختلف من رواية إلى أخرى، بل تختلف الشخصيات داخل كل عمل أدبيّ قائم بذاته، فنجيب محفوظ مبدع جيد، ولا يكرر نفسه. فهو يدرك أن "الفن الذي يقلد سابقه – حتى وإن حقق كل الشروط والقواعد الفنية – يضيف كما ولا يضيف كيفًا"(٦٣).

وفن الرواية إذا كانت ترصد حياة جماعة من البشر في زمن ما فإنها تحرص على أن ترسم بالتفصيل صورهم وملامحهم الجسمانية والنفسية والعقلية وإمكاناتهم الاقتصادية والثقافية وظروفهم المعيشية، وتتوقف عند سلوكهم في المواقف المختلفة، كما أنها حريصة على التطور التاريخي للشخصيات الرئيسة"(٦٤). وهذا ما فعله نجيب محفوظ في روايته عينة هذا البحث.

شخصية "حسنين"

وهو نموذج للشخصية الدرامية المرسومة بعناية ، ومن المعروف أن الشخصية الدرامية "تتكون بشكل متقطع من معلومات موزعة على طول النص الأدبيّ"(٦٥) . وشخصية حسنين وهو البطل الأول في الرواية بناها نجيب محفوظ بناءً دقيقًا ومحكمًا. فمنذ السطور الأولى

للرواية يصف لنا المؤلف إحساس حسنين كامل علي – الطالب في السنة الثالثة الثانوية بمدرسة التوفيقية – عندما سمع مدرس الفصل ينادي عليه – بعدما دخل عليه الضابط في الفصل وهمس في أذن المدرس – بقوله: "فقام الوله: "فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس والضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق، وغمغم: أفندم ؟"(٦٦)، وهذا وصف طبيعي ومنطقي لتلميذ في عمر حسنين، عندما يرى ضابط يدخل ويطلبه هو بالذات. وعندما غادرا حسين وحسنين المدرسة مهرولين إلى منزلهم أدرا حسين وحسنين المدرسة مهرولين إلى منزلهم عندما عرفا بوفاة والدهما ،كان حسنين هو من أسرع في البكاء من أخيه حسين وهو من تساءل وهو ينظر إلى شقيقه كالمستغيث: "كيف مات؟"(٦٧). وهذا لأنه هو الأخ الأصغر، ولو صدر هذا التساؤل من الأخ الأكبر إلى الأخ الأصغر لكان هل الأخ الأصغر لكان هذا ضعفًا في رسم شخصيات الرواية.

وحسنين يصفه المؤلف بأنه فتى في السابعة عشرة من عمره، ويشبه أخيه حسين لدرجة كبيرة، فكلاهما له هذا الوجه المستطيل، وعينان عسليتان واسعتان، وبشرة سمراء ضاربة إلى العمق، ويمتاز حسنين بالجسد الفارع ودقة في قسمات وجهه أكسبته وضاءة ووسامة، وقد اختار محفوظ أن يجعل من حسنين وسيمًا ليختال بنفسه أكثر، ويزداد غرورًا أكثر وأكثر؛ فالغرور سمة واضحة في شخصية حسنين منذ بداية أحداث الرواية، وحتي في لحظات الموت لم يفكر حسنين في الموت أكثر من تفور سمة واضحة في شخصية حسنين منذ بداية أحداث الرواية، وحتي في لحظات الموت لم يفكر حسنين في الموت أكثر من تفكيره في شكل وفخامة الجنازة، التي تمنحه الوجاهة وسلطة وكرامة بين الناس، "فعند اقتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه، كان يرجو لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التي يجب أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكترثا كثيرًا لهذا الأمر، أما هو فكان يعد إخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه"(٦٨).

وتتضح سمة الغرور كذلك من اشمئزاز حسنين ونفوره من زوج خالته ، ذلك العامل البسيط، وكذلك نفوره من أهل حارته البسطاء، فقد انقبض صدره وغشيه كدر عميق عندما شاهدهم في تشييع جنازة أبيه؛ فهو كان يمني نفسه بمستوى مشيعين ذو مكانة ومهابة في المجتمع. ولم تهدأ سريرته إلا عندما حضر أحمد بك يسري بسيارته الفارهة، هذا الرجل الذي يعمل مفتش عظيم بوزارة الداخلية، والذي كان صديقًا لوالده.

وفي موقف آخر يؤكد على غرور شخصية حسنين، نرى أن حسنين كان حريصًا كل الحرص ألا يذهب أحد من الناس المشيعين لجنازة أبيه إلى المقابر، حتى لا تقع عين على القبر حفظًا لكرامة الأسرة؛ حيث همس في أذن أخيه الأكبر قائلًا:

- لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر(٦٩).

وحتى لحظة دفن أبيه كان حسنين يسترق النظرات إلى فريد أفندي محمد في خجل واستياء من رؤية الأخير لمقبرة الأسرة المتواضعة، بل أنه حمد الله أن زملاءه في المدرسة لم يعرفوا بوفاة أبيه حتى لا يرافقوه في دفن أبيه ويروا مقبرتهم المتواضعة، وكان يتسأل مع نفسه متضايقًا: "لا مقبرة ولا يحزنون. لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا"(٧٠) . وحسنين هنا لم يهتم ولم يعبأ ولم يفكر في عظة وجلال موقف الموت، بل كان كل همه في الدنيا ومظاهرها وكيف يمشي في الأرض مرحا وكيف يُصبح مختالا فخورًا بنفسه.

كما ظهرت سمة التعالي في شخصية حسنين لحظة اعتراضه اعتراضًا شديدًا على عمل أخته خياطة بالرغم من أنهم كانوا قد أصبحوا تحت خط الفقر، حيث قال لأمه وأخوته بحدة:

- لن تكون أختي خياطة، كلا، ولن أكون أخًا لخياطة(٧١).

كما أن حسنين لا يتوانى عن الكذب للظهور أمام الآخرين بمظهر يفوق وضعه الحقيقي، حيث نراه يقول لزملائه في المدرسة – على غير الحقيقة – أن والده ترك لهم عقارات:

- من حسن الحظ أن تركتنا عقار!(٧٢).

ولعل كذبته هذه وضعها المؤلف تمهيًدا لكذبة كبرى سيكذبها حسنين على أحمد بك يسري وعلى زوجته وابنته، عندما قال لهم على غير الحقيقة:

- الحمد لله . انقضت متاعبنا بعد أن كسبنا القضية!
- (فتساءل البك) أي قضية؟
- فقال بثبات وثقة) قضية قديمة بين أمي وأخوالي على أوقاف وقد حكم لأمي بنصيبها كاملًا!(٧٣).

وسمة أخرى أوجدها المؤلف في شخصية حسنين وهي سمة عدم الرضا بما قسمه الله له، والتمرد على حياته التي يحياها، ونقمته على عيشته، فها هو نراه يلعن حياته وعيشته عندما رأي حياة وعيشة أحمد بك يسري:

- أيقنت الآن فحسب، وبعد أن تنسمت عبير الحياة الحقة في هذه الفيلا، أنه من الظلم أن نعد أنفسنا بين الأحياء(٧٤).

- ... ولكني أراجع حياتنا جملة فلا أجد بها خيرًا أبدا..[٧٥]
- ... إن لنا حقوقًا بديهية ولا يجوز أن يضيع شيء منها، فأين نحن من هذا؟.. كيف نعيش؟.. لماذا تكابد أمنا؟.. أين اخونا حسن؟.. كيف انقلبت أختنا خياطة؟[٧٦].

ومن سمات شخصية حسنين أيضًا، الانتهازية وحبه لنفسه فقط دون عداها، فهو يحب أن يأخذ ولا يُعطي، يرغب في تضحية الآخرين من أجله ولا يبذل هو أي تضحية في سبيل الآخرين. فمثلًا، طلب من أخيه حسين أن يكتفي بالبكالوريا من أجل أن يستكمل هو تعليمه. وبالفعل ضحى حسين من أجله، بالرغم من أن حسين يعرف أن أخيه يحب نفسه فقط، ولن يذكر له تضحيته هذه في يوم من الأيام، ويتضح هذا من وصفه إياه بقوله: "إنه يبدو مشغولًا بأمر نفسه عما عداها"[٧٧]. ودليل آخر على أن حسنين لا يعبأ في الدنيا سوى مصلحته فقط، ومستعد أن يضحي بأقرب الناس إليه في سبيل أن يظهر وجيهًا وكريمًا ومزهوًّا بنفسه أمام الناس؛ فهو لم يجد غضاضة ولا عيب أو حلال وحرام عندما ذهب ليأخذ من أخيه حسن عشرين جنيهًا، وبالرغم أن حسن حالته ليست على ما يرام، إلا أنه لم يحب أن يخيب ظن أخيه ، واستطاع بكل السبل المشروعة وغير المشروعة أن يمنحه العشرين جنيهًا. ورغم تضحية حسن هذه إلا أن حسنين اشمئز منه وتنكر له سريعًا، فها هو لم يكد يغادر شقة حسن ومعه نقود أخيه حتى قال لنفسه بصوت ثقيل كئيب "حياة حسن فضيحة يجب التستر عليها"[٧٨]. ولعل هذا الحدث هو تمهيد للحدث الأكبر، عندما يتنكر حسنين لأخيه حسن تمامًا، وكاد أن يتبرأ منه:

- ... فانظري مثلًا إلى أخي حسن وسيرته في الحياة!. كيف نستقبل الحياة في هدوء وحولنا هذه المتاعب؟![٧٩].

وفي موضع لاحق، يقول لأخيه حسين: "كيف نواجه العالم ولك مثل هذا الأخ؟!. سوف تظهر أسماؤنا يوما في الجرائد بين أعمدة الحوادث والجنايات![٨٠]

وليس هذا فقط، بل تتكر لأبيه – الذي أصبح من الخالدين – وود أن يتبرأ منه هو الآخر:

- ينبغي أن يتغير كل شيء، حتى قبر والدنا المكشوف بين قبور الصدقة، تصوري ماذا يطن بنا زملائي لو علموا بمكانه![٨١]

وكما تنكر لأخيه ولأبيه وتبرأ منهما – مع نفسه على الأقل – بدأ يتبرأ من خطيبته بهية، الذي شعرَ أنها لا تناسب وضعه الجديد، وتطلع إلى الارتباط بابنة أحمد بك يسري. واتضحت هذه السمة أكثر وأكثر عندما أصبح ضابط في الجيش، فها هو يواجه أمه قائلًا:

– ليتنا نستطيع أن نمحو الماضي من صفحة الوجود!.. أخاف أن يعيرنا قوم بما كان. وأنت أعلم بنفوس الناس، وأكره ما أكره أن يترامى شيء من هذا إلى أحد زملائي فأفقد كرامتي بين أقراني(٨٢).

والسطور السابقة تمهد للفعل الأكبر الذي سيفعله حسنين في نهاية الرواية، فالمؤلف هنا يقول أن حسنين لا يستطيع مواجهة الناس إذا عرفوا أن أخيهم حسنين يعمل مع الراقصات وفي تجارة المخدرات، فكيف يستطيع مواجهة العالم إذا عرفوا أن أخته نفيسة تعمل في الدعارة.

كما أن الذكاء سمة من سمات حسنين؛ حيث يصفه أخوه حسين بقوله: "ذكي بلا ريب، ومجتهد، بيد أنه ..."(٨٣).

وكان حسنين يمتلئ طموحًا، طموحًا إلى حد الطمع، والأمثلة كثيرة على هذه السمة في الرواية، فمثلًا عندما رأى فيلا أحمد بك يسري ورد على خاطره هذا السؤال: "هل يمكن أن أقتني يومًا فيلا كهذه"(٨٤).

كما أن وضاعة الأصل ونكران الجميل من خصائص شخصية حسنين، ويتضح هذا في أكثر من موقف، فعلى سبيل المثال، تنكر لجميل أحمد بك يسري، وأرجع قبوله في الكلية الحربية إلى نفسه؛ "فعندما علم بقبوله في الكلية أبى أن يعترف لوساطة أحمد بك بالدور الخطير الأول الذي لعبه في قبوله فقال لأمه إن الفضل الأول راجع لمزاياه الجسمية وتفوقه في الرياضة"(٨٥).

كما أن الاحساس بالنقص وبالوضاعة من خصائص شخصية حسنين، فهو دائمًا ما يتطلع إلى محو أثار أصله الوضيع، ويرغب في أن يقهر من هم أفضل منه في المستوى الاجتماعي، فها هو يتمنى امتلاك ابنة أحمد بك يسري، ليس حبًا فيها ولكن طموحًا في مستوى أفضل، وثورة على وضعه الاجتماعي، وسخطًا على أصله الوضيع، وحبًّا في قهر هذه الفتاة التي تعلوه في المستوى؛ حيث نراه يحلم ويردد في ذهنه قائلًا: "ما أجمل أن أملك هذه الفيلا وأنام فوق هذه الفتاة"(٨٦)، وحسنين هنا – كما يصفه الراوي – لا يرغب في مضاجعة ابنة أحمد بك يسري إرضاء لشهوته فقط، ولكن ليشعر بالعزة والقوة والفخر، فهو كما يروى نجيب محفوظ على لسانه يردد في خياله: "فتاة مجد تتجرد من ثيابها وترقد بين يدي في تسليم مسبلة الجفون وكأن كل عضو في جسدها الساخن يهتف بي قائلًا "سيدي .. هذه هي الحياة. إذا ركبتها ركبت طبقة بأسرها!"(٨٧).

إذن حسنين هنا لا يريد اعتلاء الفتاة فقط، ولكن يريد أن يعتلي فوق طبقتها الاجتماعية التي تعلو طبقته بدرجات كثيرة.

واتسمت شخصية حسنين أيضًا بالشهوة الجنسية الجامحة، فهو لم ير في بهية غير جمال جسدها الفتّان ولون بشرتها الشفاف، وساقيها المشدودتين، ووجهها الجميل وعينيها الزرقاوين. وقد بدأ يتخيلها في ذهنه برغبة شهوانية وليس بحب عفيف طاهر؛ حيث نجده يفكر فيها بقوله: "أجمل منظر حقًّا هو بطن ركبتها. في وسطه عضلة رقيقة مشدودة تشف بشرتها عن زرقة العروق. لو انحسر الفستان قليلًا لرأيت مطلع الفخذ. أجمل منظر في الدنيا منظر امرأة تخلع ثيابها. أجمل من المرأة العارية نفسها. يقولون إن مدرس التاريخ زير نساء. متى أجد نفسي رجلًا حرًّا!؟ عندنا غدًا حصة تاريخ ويجب أن أحفظ هذه الليلة القبائل الجرمانية. انكحوا ما طاب لكم من النساء، هذا أمرك يا رب ولكن هذا البلد لم يعد يحترم الإسلام"(٨٨).

وتري الباحثة أن نجيب محفوظ قد جانبه الصواب في بعض سطوره السابقة، وأنه تحدث بلسانه هو وبثقافته وخبرته هو في شئون النساء ، وليس بلسان وبثقافة وخبرة حسنين في شئون النساء؛ لآن حسنين مازال في السابعة من عمره، وهو من أسرة محافظة، بدليل أنه لم ير ابنة جيرانهم بهية منذ أن كان عمرها ثلاثة عشرة عاما، كما أن وسائل الإعلام كانت شبه معدومة في وقت وقوع أحداث الرواية عام ١٩٣٣م؛ فمن أين لحسنين أن يعرف خبايا جسد النساء كما وصفه محفوظ في السطور السابقة.

وفي أحداث لاحقة من الرواية حاول حسنين مرارًا وتكرارًا أن يظفر من خطيبته بهية بأية علاقة حميمية، أو حتى قبلة فلم يظفر، وباءت كل محاولاته بالفشل، فبهية رسمها محفوظ فتاة شريفة عفيفة وجميلة أيضًا، لا ينقصها شيء، ويصفها في ثنايا سرده لشخصيتها فيقول: "ولكن فتاته لم تكن دون أمه عنادًا؛ فأرغمته على الرضى بحب طاهر متقشف لا يستسيغه طبعه الحامي"(٨٩). وواضح أن نجيب محفوظ لم يرد أن يجد سبب واحد لحسنين يستخدمه كذريعة عندما يُصبح ضابطًا ويقرر فسخ خطبته من بهية، فهو جميلة وعفيفة، ومن أسرة محترمة وفي مستوي اجتماعي مواز – إن لم يكن أفضل – من أسرته، كما أنها ضحت بهية من أجله بالكثير؛ حيث انتظرته لسنوات، كما أنها لم تطالبه بنفقات أو هدايا أثناء فترة خطوبتها له. كل هذه السمات والخصائص في شخصية بهية أوجدها المؤلف لخدمة حبكة شخصية حسنين أولًا ثم حبكة الروائية ثانيًا، حتى يتضح في النهاية مدى أنانية شخصية حسنين ولا إنسانيتها.

وبالفعل يبدأ حسنين في التنصل من خطيبته، ويشعر أنها أصبحت هي وأسرتها دون مستواه الاجتماعي الجديد، وها هو يستخرج لنا ما يفكر فيه حسنين – في حضور بهية ووالديها – قائلًا: "لن تكون هذه المرأة حماته، ولا هذا الرجل حماه.. ولا هذه الفتاة زوجه، عطفة نصر الله بذكرياتها السود وحاضرها الأغبر"(٩٠). وكم تمنى حسنين لو يغمض عينيه ثم يفتحها فلا يجد أثرًا للماضي كله، خيره وشره:

- لا ينبغي أن نعرف أحدًا في حيينا الجديد ولا يعرفنا أحد فلا نزور ولا نزار[٩١].

وبدأ حسنين يفكر في كيفية إنهاء خطبته هذه التي لا تشرفه، وانتهز فرصة اختلائه ببهية بصالون شقته الجديدة في مصر الجديدة، وذلك عندما ذهبت بصحبة أمها ليهنئوا أسرة حسنين بشقتهم الجديدة، وأبدى له أسفه لعدم رغبته الزواج منها:

- إني جد حزين، ربما أقمت لي العذر يوما.
- (فقالت في إعياء وقهر): حسبك، لا أريد سماع كلمة أخرى.[٩٢].

وأسرع حسنين بمفرده إلى أحمد بك يسري ليخطب ابنته لنفسه دون أن يصطحب معه سوى ثقته بنفسه التي زادت إلى الغرور والطمع وحب الذات فقط. ذهب كالمغامر الذي يمني نفسه بالفوز، فها هو يمني نفسه قائلًا لها: "إذا ربحت، ربحت الدنيا جميعًا، وإذا خسرت لم أخسر شيئًا يذكر. إني أسف يا بني، سلام عليك يا سعادة البيك، هذا أفظع ما يتوقع. إني كفء لها بغير جدال. ما عسى أن تريد مما ليس لدي؟ عندها المال بالقنطار. ما أحمقكم يا أهل هذا البيت إذا رفضتم يدي"[٩٣]. ولكن حسنين خسر بإقدامه على هذه الخطوة بطبيعة الحال، وبطبيعة المقومات المادية والاجتماعية التي رسمها المؤلف لكل من شخصيات أحمد بك يسري وأسرته والمقومات المادية والاجتماعية لشخصية حسنين؛ حيث قوبل طلبه بالرفض والسخرية منه ومن وضعه الاجتماعي، "فحسنين اكتشف أنه في نظر هذه الطبقة غارق في الطين إلى أذنيه، وهو عاجز أن يدفع عن نفسه هذه التهمة، لأنه تبنى أخلاق الأغنياء ووجهة نظرهم"[٩٤]. وانتشر الخبر بين أصدقائه؛ فأصيب في كرامته وكبريائه إصابات بالغة:

- فهمت من حديثه أن الأسرة لم توافق. يؤسفني أن أبلغك هذا..[٩٥].

وشعر حسنين بالخبر يضغطه كحمل ثقيل فتضاءل تحته وأحس بانهيار في كرامته ورجولته، ثم فار غضبه حتى أوشك أن يستسلم لنيرانه، ولكنه ثار على الاستسلام في اللحظة الأخيرة، وقرر أن ينفس عن صدره مهما كان الأمر، فذهب يواجه أحمد بك يسري، وهناك رأى ابنته نفسها؛ فثبت عيناه عليها في جمود ذاهل وقد شعر من الأعماق بإحساس الخزي، ولكنه تمالك نفسه حاول فثبت عيناه عليها في جمود ذاهل وقد شعر من الأعماق بإحساس الخزي، ولكنه تمالك نفسه حاول أن يعرف منها سبب رفضها، إلا أنها تركته وانصرفت دون مبالاة له؛ فعاد من حيث أتى يجر أذيال الخيبة والحسرة وهو يردد في ذهنه: "... إني أشعر بمرض من نوع جديد، أين الداء؟ أين الخطأ؟ أين العلاج؟"[٩٦] .

وتوالت الصدمات على حسنين عندما دق الباب معلنًا عن قدوم أخيه حسن وهو غارق في دمائه ، بين الحياة والموت؛ حيث كان قد تشاجر مع بعض أعدائه؛ فنال منهم ضربًا مميتًا، وجاء به أحد أصدقائه إلى المنزل، ولم يشأ أن يذهب به إلى المستشفى خوفًا من البوليس الشرطة التي تبحث عنه. ووقع حسنين في حيرة كبيرة، ما بين واجبه نحو أخيه وبين خوفه من الفضيحة التي ستناله لو جاءت وقبضت عليه في مسكنه؛ فها هو يفكر قائلًا: "قضى علينا، قلبي لا يكذبني على الأقل في الشر، قضى علينا في مصر الجديدة كما قضى علينا في شبرا، وسيطاردنا البوليس جميعًا كالمجرمين. أكاد أرى بعين رأسي المحموم الضابط وهو يفتش الحجرات ويلقي القبض على المجرم الهارب، ... كلا لن يموت، أما أنا فإني أموت موتا بطيئًا قاسيًا، إن كرامتي تحتضر"(٩٧). وتتصاعد الأوهام والأفكار في ذهن حسنين حتى تصل مدى كبير تجاه أخيه حسن، فهو يعتقد اعتقادًا راسخًا أن الفضيحة قادمه من ناحيته لا شك فيها:

- ... فالفضيحة آتية لا ريب فيها.. أين المهرب من هذه الآلام جميعًا. إني أمقت هذا الجريح وأمقت نفسي وأمقت الحياة جميعًا"(٩٨).

ودق جرس الباب معلنا عن وجود شرطي يستدعي حسنين لمقابلة ضابط المباحث لأمر هام؛ فأدرك حسنين أن الضابط يستدعيه من أجل أخيه حسنين، وشعر بأن الفضيحة آتية لا محالة. وبالفعل كانت الأمر يتعلق بفضيحة، وبفضيحة مدوية، ليست آتية من قِبل حسنين، بل من قِبل أخته نفيسة؛ حيث تم ضبطها ضمن شبكة لممارسة الأعمال المنافية للآداب العامة:

- الأمر يتعلق بأختك..
- (ورفع حسنين حاجبه في استنكار ثم قال): تعني أخي؟
- الست أختك، ولكن معذرة أحب أن أسألك أولًا هل لك أخت تدعى نفيسة؟
- (فقال حسنين في ذهول): نعم، هل وقع لها حادث؟
- (فعض الرجل طرفه وهو يقول): يؤسفني أن أخبرك بأنها ضبطت في بيت بالسكاكيني(٩٩).

وهكذا كانت المصيبة الأكبر التي حدثت لحسنين، والتي ألجمته عن الكلام؛ حيث أنصت للضابط وهو يحملق في وجهه، وتمتلئ عيناه بوجهه فلا يرى سواه، وأحيانًا لا يرى إلا شفتين تنطبقان وتنفرجان فينثال من بينهما كلام هو الفزع واليأس والغرابة، وبعد فترة من الوجوم والذهول سأل الضابط في استسلام:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- يوجد في هذا الحي بيت تستأجره ست رومية وتؤجر حجراته بالساعة للعشاق. كبسنا البيت عصر اليوم فوجدنا الست.. وجدناها مع شاب، واعتقلناها طبعًا وشرعت في اتخاذ الإجراءات القاسية، التي تعرفها؛ فاضطرت تحت تأثير الخوف أن تعترف لي بأنها شقيقة ضابط، على أمل أن أطلق سراحها(١٠٠).

وتأكدَّ حسنين أن نفيسة فعلت ذلك، لكن ماذا يفعل بها؟. واصطحبها دون أن ينبس بكلمة وهي كذلك، ولكنها غمغمت، بعد فترة ، في نبرات مرتعشة متهدجة قائلة:

- لقد أجرمت. إني أعلم هذا.. ولن أسألك غفرانًا لست جديرة به(١٠١).

وأحدثَّ صوتها – على ضعفه – زوبعة من الهياج في صدره؛ فتوقف عن السير والتفت نحوها في سرعة غريبة، وهوى بيده على وجهها كالقذيفة؛ فتراجعت مترنحة دون أن تنبس بكلمة، ثم سقطت على ظهرها واصطدم مؤخر رأسها بالأرض. وشعرت بما ينوي فعله، فطلبت منه أن لا يفعل، وستقتل هي نفسها حتى لا يمسسه سوء بسبب قتلها، وزادته رقة كلامها هياجًا على هياج فصاح بها بصوت كالخوار:

- لا تريدين أن يمسسني السوء بسببك؟!.. يا عاهرة لقد صببت السوء عليَّ صبًّا(١٠٢).
- لا ينبغي أن يمسك عقاب وإن هان، ثم بماذا تجيب إذا سئلت عما دفعك إلى قتلي؟!. دعني أقم أنا بهذه المهمة فلا يكدرك مكدر ولا يدري أحد(١٠٣).

والجملة السابقة التي قالتها نفيسة تعني أنها تفهم جيدًا نفسية أخيها حسنين، فهو لا يهمه حياتها، ولا يهمه شرفها بقدر ما يهمه كلام الناس، ومظهره بين الناس. وهذا ما أكده المؤلف في شخصية حسنين في أكثر من موقف في الرواية ، عينة هذا البحث. كما أكده في هذا الموقف – الذي ترصده الباحثة – حيث كان حسنين حريص أن يسأل نفيسة عما إذا كان الرجل الذي كان يضاجعها يعرفه أم لا:

- من هو؟
- لا تعذب نفسك ولا تعذبني، سينتهي كل شيء في لحظات.
- أكان يعرفني؟
- كلا.(١٠٤)

قالت كلمة "كلا" بعجلة وتوكيد، فهي تعرف أن أهم شيء عند أخيها حسنين هو مكانته وشكله أمام الآخرين، وما عدا ذلك قد يهون. وهنا فقط بدأ يتمالك نفسه، وشعر أن حملا ثقيلًا تزحزح عن عاتقه وهوى بعيدًا؛ "فالآن بعد هذا الحكم الذي قضت به على نفسها يسعه أن يسترد

أنفاسه وأن يستبين بصيصًا من النور في هذه الظلمة الخانقة"(١٠٥). وطلب منها حسنين أن تنتحر غرقًا في النيل؛ فوافقت، واستوقف حسنين تاكسي وذهب بها إلى جسر الزمالك. وهناك تركها وابتعد عنها قليلًا واختبأ وراء شجرة، وشاهدها وهي تلقي بنفسها في ماء النيل، وتموت غرقًا؛ فصرخ صرخة فزع. "وشعر وهي ترمي بنفسها أن بوسعه أن يجد للمسألة المعقدة التي تحيره حلًا، ولم يكن الحل فيما فعلت بنفسها، كان يمكن أن تكون نهاية أخرى، وكأنما حاول أن يستدرك الخطأ بصرخته ولكنها ضاعت"(١٠٦).

واستطاع نفر من الناس أن يستخرجوها من الماء، ولكن كانت روحها صعدت إلى بارئها، وذهب حيث تجمهر المارة حول جثتها، وشاهد جثتها وهي ملقاة على الأرض؛ فشعر باضطراب غريب يثري في جسده، وتساءل: "لماذا اضطرب هكذا؟ ألم أقتنع حقًّا بأن هذه هي خير نهاية، ... ماذا ترى في موقفي هذا؟. لماذا وقع هذا كله؟"(١٠٧). ووجد نفسه يتذكر أيادي الفتاة عليه، وما كانت تكن له من حب، وما جادت به من كرم، فما كان يخطر ببال أن تكون نهايتها على يديه، وشعر بإعياء وقنوط وبدأ يشعر لأول مرة في حياته بأنه مخطئ، وبدأ يتساءل في جزع ويجيب على نفسه: "لماذا هذا كله، ... ، قُضيَّ عليَّ. كنا جميعًا فريسة للشقاء فما كان لأحدنا أن يعين الشقاء على أخيه. ماذا فعلت؟. إنه اليأس الذي فعل. ولكني قضيت عليها بالعقاب الصارم. أي حق اتخذت لنفسي!. أحق أني الثائر لشرف أسرتنا؟! إني شر الأسرة جميعًا. حقيقة يعرفها الجميع، وإذا كانت الدنيا قبيحة فنفسي أقبح ما فيها. ما وجدت في نفسي يومًا إلا تمنيات الدمار لمن حولي فكيف أبحث لنفسي أن أكون قاضيًا وأنا رأس المجرمين! لقد قضى علي، ... طالما أحببت أن أمحو الماضي، لكن الماضي التهم الحاضر، ولم يكن الماضي المخيف إلا نفسي، لماذا أواصل الحياة بهذه الأعباء؟ لا أستطيع. كان ينبغي أن أحب الحياة إلى النهاية، ومهما يكن من أمر، ولكن في طبيعتي خطأ جوهري لا أدريه. لقد قضى عليَّ"(١٠٨).

وترى الباحثة هنا أن الخطأ الجوهري الذي وقع فيه حسنين هو الغرور والخيلاء والتسرع. كما ترى أن نجيب محفوظ وقف محتارًا في مصير بطله، هل يجعله يواصل الحياة بهذه الأعباء، وشخصيته تحتمل هذا، ولن يكون تصرفه شاذاً عن مقومات شخصيته ، أم يجعله يُنهي حياته بنفسه حتي يكون عقابًا شديدًا وعظة لكل الشخصيات مثله، وحتي يستكمل بطل روايته الرئيس مقومات البطل التراجيدي كما رسمتها الدراما الكلاسيكية. واختار نجيب محفوظ أن يحتفظ بطله بكل مقومات البطل التراجيدي وتصبح نهايته شقية وتعيسة، حيث جعل حسنين ينهي حياته بنفسه ، منتحرًا في النيل وفي نفس المكان الذي انتحرت فيه أخته نفيسة.

وهكذا رسم محفوظ شخصية حسنين، هذه الشخصية التي جاء تصرفها الأخير متوافقًا مع سماتها منذ بداية الرواية. وهذا نجاح كبير للمؤلف (من وجهة نظر الباحثة). ولكن يبقى سؤال تطرحه الباحثة: هل كان حسنين شجاعًا – ولو لمرة واحدة كما قال هو في أخر جملة نطق بها– حين اختار الموت منتحرًا، أم كان جبانًا يفر من لقاء الناس؟. وتري الباحثة أن حسنين كان يفر من نفسه التي أصابها اليأس والاحباط من كل شيء ، أو ربما أراد نجيب محفوظ له ذلك ليثير موضوع فلسفة الحياة ؛ حيث أن فلسفة الحياة تفرض على أصحابها التضحية في كثير من الأحيان.

وفي معرض مقارنته بين الأخوة الثلاثة حسن وحسين وحسنين من ناحية الإيمان والعقيدة، ومن ناحية فكرة الموت والحياة، نجد أن نجيب محفوظ يصف حسنين بأنه غير راسخ العقيدة؛ حيث كان في حيرة من كرب الموت، لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكير. "وكان يسلم بالإيمان تسليمًا وراثيًا لا شأن فيه للفكر، وقد حملته أمه يومًا على أداء الفرائض فأداها دون وعي، ثم هجرها في شيء من التردد دون تكذيب أو زيغ، ولم تتسلط العقيدة على فكره، ولم تشغل باله كثيرًا، ولكنه لم يجد نفكره، ولم تشغل باله كثيرًا، ولكنه لم يجد نفسه خارجًا على حقائقها قط"(١٠٩).

ونجيب محفوظ في السطور السابقة يمهد لسلوك وأفعال شخصية حسنين فيما بعد؛ وخاصة سلوكه وفعله في نهاية الرواية، فلم يكن يفعل ما فعله في نهاية الرواية مالم لم تكن سمة الشك والتردد والبعد عن الدين من ضمن سماته، ولم يكن يفعل ما فعله إذا كان يمتلك عقل راجح وواع ومفكر ومتأمل لشئون الدنيا والدين، ولم يكن يشجع أخته على الانتحار، بل وينتحر هو شخصيًا بعدها مالم يكن يمتلك هذه الخصائص غير السوية.

إن شخصية حسنين في بداية ونهاية هي شخصية تراجيدية بكل ما تحمله الكلمة من معني، هو بطل تراجيدي من الطراز الفريد، هذا البطل الذي قال عنه أرسطو أنه "ذلك الذى يتحول حظه من حال السعادة إلى حال التعاسة، وليس من حال التعاسة إلى السعادة، كما ينبغي ألا يكون هذا التحول نتيجة شر أو رزيلة، ولكن بسبب خطأ ما، أو سوء تقدير"(١١٠)، كما أن الشخصية التراجيدية لابد أن تكون شخصية مؤثرة في الأحداث، وأن تكون ملائمة للدور الذى تؤديه؛ كما يجب أن يكون البطل التراجيدي "متميزًا عن الآخرين، متفردًا في سلوكه، وإن أدى هذا التميز إلى الوقوع في الهلاك"(١١١). وشخصية حسنين هي كذلك؛ حيث تتسم بالكبرياء الذي يجنح إلى الخيلاء، وتتسم أيضًا بحب الذات الذي يؤدي إلى الغرور، وتتسم بوضاعة

الأصل ونكران الجميل، وتتسم كذلك بالطموح الجامح ، هذه الصفات أدت به إلى الغضب والتسرع وعدم الصبر. هذه السمات في طبيعة حسنين هي التي كانت سبب شقائه في النهاية:

- إني أحب ما تحب ولكني أوصيك بالصبر وأحذرك عواقب ثورة لن تجدي الآن إلا الحزن. تريد أن تمحو الماضي وتغير البيت وتنشئ مقبرة وتبدل أخا لك من حال إلى حال، ولكن هيهات أن يتم لك ما تريد قبل زمن طويل، فكيف يكون العمل؟. طالما تمنيت أن تسعدنا وأن تسعد معنا، فإذا لم تروض نفسك على التسليم بالواقع وتأخذها بالصبر شقيت وشقينا![١١٢].

وهكذا كان حسنين ضحية غروره وطموحه وتسرعه. وهذا ما يتضح في نهاية أحداث الرواية هذه – عينة البحث – ؛ حيث سيصبح حسنين شقيًّا وتعسًا، كما سيجلب الشقاء والتعاسة لأسرته كلها.

شخصية "حسين"

يكبر حسنين بعامين تقريبًا؛ حيث يبلغ من العمر تسعة عشرة عامًا، ويشبه أمه في أخلاقها وصبرها، ورجاحة عقلها وإخلاصها للأسرة، لذلك لم يعارض أمه قط في أحداث الرواية.

يصف المؤلف شخصية حسين بأنه راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم؛ فلم يداخله شك في فكرة الموت والحياة، وفي وجود الله، وفي الدنيا والآخرة، وسأل الله بقلبه أن يلقى أباه في ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال من رضوان الله.

وشخصية حسين شخصية وسط بين شطحات أخيه الأكبر حسن، وطموح أخيه الأصغر حسنين، فقد جاء سلوكه متزنًا وعاقلًا؛ ويصفه المؤلف بقوله: "وكان حسين أعقل الأخوين وحسنين أقواهما، فكان الأول يقوم بمهمة الإرشاد والتوجيه فيما يعرض لهما من مشكلات"[١١٣]؛ حيث نراه يكبح جموح أخيه حسنين، ويقف منه موقف المعارض عندما أراد أن يتمرد على عيشتهما وأن يعصي أوامر أمهما ويكذبها:

- إذن فأنت تصدق ما قالت !. أحقًّا لم يترك والدنا شيئًا؟ ألا يسد المعاش نفقاتنا؟

فتنهد حسين قائلًا:

- إني مؤمن بكل كلمة نطقت بها. هذه هي الحقيقة.

فتساءل حسنين في جزع:

- كيف نطيق هذه الحياة؟

فارتسمت على شفتي حسين ابتسامة حزينة. كان يشارك أخاه حزنه وقلقه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال:

– كما يطيقها الكثيرون. أم حسبت الناس جميعًا يحظون بأب كريم ورزق موفور؟!. ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون(١١٤).

وترى الباحثة أن شخصية حسين في هذه الرواية ضرورية لكبح جماح حسنين، وترويضه إلى حين، وخاصة أن حسنين كان يشك في كل شيء، حتى كاد أن يلحد، فهو القائل لأخيه حسنين: "... إني أعرف تلاميذ يجاهرون بالشك، وهم أذكياء ومطلعون"(١١٥). إذن لولا وجود هذه الشخصية بجوار حسنين، وبنائها بهذا الشكل الذي بناه محفوظ، لجمح سلوك شخصية حسنين وضلت طريقها من البداية، فربما كان يسلك حسنين مسلك أخيه الكبير ولم يستكمل تعليمه، أو ربما عصى والدته وطردته خارج البيت، أو ربما ارتكب اي عمل اجرامي ما، أو أي مسلك آخر غير سوي.

وشخصية حسنين تتميز بالثبات الانفعالي والصدق والهدوء النفسي، على عكس شخصية أخيه حسنين، فمثلًا عندما سمع أخيه حسنين وهو يدعي كذبًا أن والدهما ترك لهم عقارات، اغتاظ "ولم يخنقه الكذب فحسب ولكنه أشفق من عواقبه. كيف نواجه الحال الجديدة إذا ظن بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟.. إنه يكذب بلا مبالاة. سحقًا له! وصوب عينيه نحو أخيه محذرا فتحاشاه الفتى في تذمر"(١١٦). وفي موقف آخر، عندما رأي بهية ابنة فريد أفندي غضَّ بصره عنها بالرغم من جمالها الفتّان، على عكس أخيه حسنين الذي كان دائم التلصص عليها، وكان حسين يوبخه بشدة، وكان هذا التوبيخ يزعج حسنين؛ فيردد مع نفسه واصفًا أخاه حسين: "حنبلي، حنبلي. يجب أن يكون رجلًا وقورًا قبل فوات الأوان. ولا يبدو أنه يريد أن يعاونني"(١١٧).

والتواضع سمة من السمات التي وضعها المؤلف في شخصية حسنين، وهذه السمة واضحة في أكثر من موضع في الرواية، ولعلها تتجلى في هذا القول الذي قاله حسين لفريد أفندي عندما ذهب ليخطب بهية لنفسه في نهاية أحداث الرواية –عينة البحث– :

– شيء واحد يحرجني في هذا المسعى كله وهو ما أشعر به من أنني غير كفء لها(١١٨).

وحسنين كان معجب بشخصية بهية منذ أن شاهدها أول مرة، ولكنه كان عاقلًا ومتزنًا في أفعاله، حيث صرف نظر عنها منذ أن عرفَّ أن أخاه حسنين معجب بها، وإن كان ظل معجبًا بشخصيتها حتى بعد أن أصبحت خطيبة أخيه، فقد فكرَّ فيها ذات مرة بقوله: "فتاة حسناء حقًا،

مهذبة محتشمة، وحسنين شاب رائع وسيكون زوجًا رائعًا. ترى ألم يقبل هذا الثغر؟ طالما شكا تحصنها متذمرًا فيالها من فتاة نادرة حقًّا"[١١٩]. ودليل آخر على إعجابه ببهية، وهو أنه أراد أن يرسل لها التحية والسلام في خطابه لأخيه حسنين؛ حيث حمله تحياته إلى أمه ونفيسة ثم توقف متسائلًا هل يهدي تحية إلى بهية؟ هل يذكرها بالاسم، أو يصفها بخطيبة أخيه أو يقنع بتحية عامة لأسرة فريد أفندي؟ ثم آثر الأخير بعد تردد طال أكثر مما ينبغي"[١٢٠].

والسطور السابقة تمهد لما سيتخذه حسين من قرار ، وهو طلب يد بهية بعد أن تركها أخيه حسنين، وهذا نجاح في رسم مقومات حسين الشخصية، ونجاح للحبكة الروائية، فلو كان حسين اتخذ هذا القرار دون هذه المقدمات لكان قرارًا متسرعًا حيال تصرف أخيه حسنين أو عطفًا على حال بهية، والتسرع ليس سمة من شخصية حسين العاقلة المتزنة، وحسين ذاته كان يسأل نفسه في دهشة قائلًا: "ترى أهي من وحي الساعة أم أثر لما تجمع في نفسي خلال ثلاث سنوات؟"[١٢١].

ولعل المقومات الشخصية لشخصية حسنين والتمهيد الذي مهدَّ به المؤلف لاتخاذ هذا القرار يجيب ، فيما لا يدع مجالًا للشك ، أنه قرار ناتج عن تراكم ثلاث سنوات من عاطفة وحب من حسين تجاه بهية. وهذا ما أكده لوالد بهية وهو يطلب يدها منه بعد أن فسخ حسنين خطبته لها:

- لا تحسبن أن ما يدفعني إلى هذا الرجاء هو ما أشعر به حيال تصرف أخي من خجل، أو ما عسى أن تتصوره عطفًا على حال الآنسة، كلا ، وأقسم على هذا. إنها رغبة قائمة بذاتها، منبعثة أولًا وأخرًا من تقديري لكريمتكم ولكم"[١٢٢].

شخصية "حسن"

منذ بداية الرواية وقبل أن يظهر حسن بشكل فعلي، مهّد المؤلف بإرهاصة عن طبيعة هذه الشخصية، وذلك عندما سأل ناظر المدرسة كلًا من حسين وحسنين عن إن كان لهما أخ موظف أو شيء من هذا القبيل فأجابا بالنفي، فاستطرد الناظر قائلًا لهما: "إن أخاكما الأكبر أبلغني أن أباكما قد توفي"[١٢٣]. وواضح من كلام الناظر أن حسن قدّم نفسه للناظر بأنه موظف حكومي، وهذا غير صحيح؛ ولكن الموقف يدل على بعض ملامح شخصيته ؛ فحسن كما قدمته أحداث الرواية فيما بعد هذا الحدث هو شاب يبلغ من العمر ٢٥ سنة، صعلوك، متواكل، "مستهتر، وجرئ، لا عمل له ولا مهنه يمتهنها، يعتني بنفسه من ناحية، وعلى قدر غير قليل من الابتذال من ناحية أخرى"[١٢٤]، بالرغم من أنه كان حريص أن يرتدي بدلته الوحيدة، التي أرغم أباه من شرائها له، إلا أنه "كان شعره أعجب ما فيه فقد تركه حتى غزر واسترسل، وتصاعد جعودة جعلت به رأسًا مستقلًا فوق رأسه الأصلي. أما وجهه فكان حسن

كشقيقيه يميل إلى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام"[١٢٥] ، وكان دائم الشجار مع أبيه. بالرغم من حقده على أخوته حسين وحسنين لنجاحهما في حياتهما المدرسية ،وفشله هو فيها إلا أنه كان يحبهما.

إن حسن لم يشغله فكرة الموت ولا فكرة الثواب والعقاب في الآخرة، ولم يشغله وجود الله من الأساس، "كأنه كان وثنيًّا بالفطرة، والحقيقة أنه لم يتأثر بأي نوع من التربية أو تهذيب. كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه في ساعات الغضب. وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور العقيدة، وما انفك يتخذ منها مادة لمزاجه ودعابته، وحتى الأثر الخفيف الذي علق بقلبه من وحي أمه ضاع في خضم الحياة التي اكتوى بنارها. لذلك تاه به الفكر في وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحظه وحظ أسرته منها"[١٢٦]. وكان كل هم حسن اللقمة والسترة، ولا يعبأ بالحياة ولا يعمل لها حسابًا، فهو دائمًا ما يحدث نفسه قائلًا: "يا سيدي لا تسمح للهمّ أن يركبك فما يجوز أن يركب إلا البهائم من عباد الله. سوف تعيش طويلًا وتلقي الحياة بخيرها وشرها. لم أسمع عن إنسان مات جوعًا. الأغذية تسد الطريق سدًّا. ولست طماعًا فما تريد إلا اللقمة والسترة وكم كأسًا من الكونياك، وكم نفسًا من الحشيش، وكم امرأة من النساء، وكل أولئك متوفرة بكثرة، أكثر من الهمّ على القلب، توكل على الله ولا تحمل همًا"[١٢٧].

ويُرجع نجيب محفوظ اختلاف شخصية حسن عن شخصية أخويه حسين وحسنين إلى تدليل الأب له؛ حيث كان حسن هو الابن البكر له، كما أن الأب كان طيبًا و"كان أدنى إلى حنان الأمهات وضعفهن. والأبناء أنفسهم مثال حي على التباين بين الأب والأم، فحسن كان شاهدًا تعيسًا على رخاوة الأب وتدليله، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها"[١٢٨].

ومن المعروف أن الشخصية تتكون من ثلاث مقومات رئيسة، وهي العامل المادي (الوراثي) والعامل الاجتماعي، والعامل النفسي، والعامل الأخير هو نتاج العاملين الأوليين. وما دام العامل المادي والاجتماعي عند حسن شبيه بالعامل المادي عند أخويه حسين وحسنين، فما الذي جعل سلوكه يختلف عن سلوك أخويه هكذا؟. وفي هذا الصدد يقول لاجوس آجرى في كتابه الشهير "فن كتابة المسرحية" :"أنه "ليس يكفى وأنت تدرس شخصًا ما أن تعرف هل هو فظّ خشن ، أو مؤدب دمث ، أو ورع متدين ، أو ملحد منكر لوجود الله ، أو رجل ذو خلق أو انسان ساقط لا خلق له . بل يجب أن تعرف الذى صيره هكذا ، ولماذا لا تنفك أخلاقه تتغير ، ولماذا يجب أن تتغير أخلاقه سواء رغب في ذاك أو لم يرغب"[١٢٩]

ولم يفت نجيب محفوظ هذا التساؤل في روايته؛ حيث أجاب قائلًا: "وكان حسن في البدء ضحية الأب وتدليله، فلم يبعث به إلى المدرسة إلا في سن متأخرة. وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية، وتكرر هروبه من المدرسة، وتوالى سقوطه عاما بعد عام، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نقار وشجار ثم ما يشبه العداوة الحقة، فكان يطرده أحيانًا من البيت فيقضي أيامًا متسكعًا ثم يعود إلى البيت وقد اكتسب شرورًا جديدة من محادثة الأشقياء والغوص في الإثم والإدمان وهو دون العشرين، ... ولم يعد يأبه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمه ففرض نفسه على البيت فرضًا"(١٣٠). إذًا الذي سيَّر حسن هكذا هي البيئة التي نشأ وترعرع فيها، وخاصة بيئة الشوارع وأصحاب السوء، هذا بالإضافة إلى عدم استكماله لتعليمه في المدرسة، وإلى إدمانه للخمور وتدليله في البداية من قِبل والده.

ورسم محفوظ شخصية حسن بعناية فائقة، وسبر أغوارها بدقة، ونلاحظ ذلك عندما قررت الأم الانتقال من السكن في الدور العلوي إلي السكن في الدور الأرضي تخفيضًا لنفقات الإيجار؛ حيث "اشتغل حسن بهمة كأنه يتملق بجهده أمه فلا تلحف في تأنيبه على تعطله، وكان أقل الأخوة تأثرًا للتغير الذي قلب الأسرة كما ينبغي لرجل ذاق التشريد وألف التسكع"(١٣١).

وترى الباحثة أن نجيب محفوظ لم يوفق في أن يجعل حسن يقول الكلام الذي وجهه لأخيه حسنين، عندما ذهب الأخير له معلنًا رفضه لمهنته الحقيرة، وضرورة أن يغير حسن من مهنته غير الشريفة هذه، ويبحث له عن مهنة شريفة، حتى تتناسب مع وظيفته الجديدة كضابط جيش:

- حياة شريفة، حياة شريفة! لا تعد هذه العبارة على مسمعي فقد أسقمتني، ميكانيكي بقروش معدودات في اليوم، أهذه هي الحياة الشريفة!؟.. السجن أحبّ إليها منها! ولو أنني استمسكت بها طوال حياتي لما حليت كتفك بهذه النجمة، أتحسب أن حياتي وحدها غير الشريفة؟.. يا لك من ضابط واهم! .. حياتك أنت أيضًا غير شريفة، فهذه من تلك، ولقد جعلت منك ضابطًا بنقود محرمة مصدرها تجارة المخدرات وأموال هذه المرأة (وأشار إلى الصورة)، فأنت مدين ببدلتك لهذه المومس والمخدرات، ومن العدل إذا كنت ترغب حقًا في أن أقلع عن حياتي الملوثة أن تهجر أنت أيضًا حياتك الملوثة، فاخلع هذه البدلة ولنبدأ حياة شريفة معًا(١٣٢).

كما ترى الباحثة أيضًا أن هذا الأسلوب وهذا المنطق السليم في الكلام، وهذه الفلسفة لا تخرج من فلسفة لا تخرج من فم شخص جاهل، لم يتعلم في مدارس، ولا قرأ كتابًا، فهو يجهل القراءة والكتابة؛ حيث خرج من الصف الثالث الابتدائي، وإنما هذا الكلام يتفوه به نجيب محفوظ وليس شخصية حسن الذي رسمها في روايته بداية ونهاية.

وشخصية حسن تتسم بالطيبة والحنان رغم مهنته ورغم سلوكه الاجرامي. وهذا ما نراه في سلوكه مع أخيه حسين وحسنين، فبرغم ضيق ذات يده إلا أنه لم يرفض لهما طلبًا، وساعدهما مساعدة كبيرة. وتتضح طيبته أكثر في موقفه مع حسنين، عندما شعر أن حسنين يتبرأ منه ومن مهنته الوضيعة؛ حيث لم يتركه يذهب وهو غاضب منه، فنادى عليه وصافحه بحرارة وهو يقول ضاحكًا:

– يؤسفني أنّي أغضبتك . انس ما كان ولنبق كما كنا ولو على البعد، ستجدني دائما "الروسي" الذي عهدته. لا تنس أن تهدي سلامي إلى أمنا ونفيسة. مع السلامة[١٣٣].

شخصية "نفيسة"

اسم نفيسة يدل على الشيء النفيس، أو الغالي، وهو يرمز لنفيسة بالشيء الغالي، ولكن بالرغم من معدنها النفيس باعت نفسها للشيطان بأرخص الأثمان من أجل أن تنفق على أخيها حسنين، بل ضحت بحياتها كلها إرضاءً له. ويصفها المؤلف بأنها في الثالثة والعشرين من عمرها، ولم تستكمل تعليمها، تجيد مهنة الخياطة إلى حد ما، وشبيهة لأمها في الشكل؛ حيث الوجه البيضاوي النحيل والأنف القصير الغليظ والذقن المدبب، إلى شحوب في البشرة، واحديداب قليل في أعلى الظهر، "فلم تكن تختلف عن أمها إلا في طولها المماثل لطول شقيقها حسنين. كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها، على حين ورث الإخوة خلقة أبيهم"[١٣٤]. وبشكل غير مباشر يصف لنا مؤلف الرواية شكل نفيسة بعدم اكتراثها لبيع أمها لمرآة حجرة الاستقبال، وذلك عندما حدثت نفسها قائلة: "ينبغي أن تكون المرآة آخر ما أحزن عليه، لن تعكس لي وجهًا أسر به، الخفة أنفس من الجمال!، هذا قولك يا أبي وحدك ولولاي ما قلته أبدًا. لا جمال ولا مال ولا أب. كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلي، مات أحدهما، وشغلت الهموم الآخر. وحيدة. وحيدة، وحيدة في يأسي وألمي، ثلاثة وعشرون عامًا! ما أبشع هذا. لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتي اليوم أو غدًا؟! وهبه جاء راضيًا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟. لماذا أفكر في هذا؟ لا فائدة، سوف أظل هكذا ما حييت"[١٣٥]. هكذا ترى نفيسة نفسها؛ فهي "فتاة لا تستطيع أن تحلم ككل الفتيات بالشاب الذي يمكن أن يطرق بابها يوماً ليتخذها شريكة لحياته، إنها بمعنى آخر محرومة من نعمة الشعور الأنثوي بأنها مطلوبة، وإذا كان الناس عادة يطلبون الغنى الذي يعوضهم عن الجمال ،فهي ليست جميلة وليست غنية، والفقر والدمامة معناهما الحرمان من الطلب"[١٣٦].

ودمامة نفيسة مقصودة من قِبل نجيب محفوظ، حتي تتأزم أمور الأسرة أكثر وأكثر، كما جعلها أنثي مشتعلة الغريزة الجنسية، فهي تحلم كثيرًا أن تتزوج وتمارس حياتها الجنسية كأغلب النساء، ولعل هذه المشاعر والرغبات الأنثوية هي التي جعلتها تنجذب نحو الشاب جابر سليمان – الذي يعمل في محل بقالة أبيه – رغم ضآلة شأنه ومنظره، حيث جاش صدرها بالانفعال نحوه، "وتخيلت نفسها واقفة أمامه تبتاع الحلاوة فجعل يلتهمها بعينيه ثم قال لها وهو يتناول القرش: أنت أحلى من الحلاوة، حقًّا لم يقل هذا ولكنه قال قولًا يضاهيه. وتنهدت بارتياح ثم طار خيالها إلى ذكريات عشاقها الغابرين"(١٣٧)، فنفيسة كانت تختار لنفسها عشاقًا، وتعيش معهم العشق في خيالها. وجعل نفيسة أنثي تتمتع بكامل غرائز الأنثى مقصود أيضًا من قِبل المؤلف؛ حتى تقودها الرغبة الجنسية لفعل الفحشاء؛ حيث أنها لا تجدها في الحلال، كما لا تجد مفرًا إلا أن تسلك السلوك الذي سلكته في الرواية؛ لأن نفيسة لو جعلها المؤلف جميلة لكانت قد تزوجت وخففت عن كاهل الأسرة، كما أن الزواج سترة لها، ووقتها لم يكن هناك مبرر لانحرافها، وعملها في الدعارة . وبالتالي لم يكن هناك أزمة للرواية تحتاج لحل، وهو الانتحار كما جاء في هذه الرواية – عينة البحث– لذا تستنتج الباحثة أن نجيب محفوظ أراد لشخصية نفيسة أن تكون هكذا حتي يبني حبكته الروائية.

وحتى يفسح المجال لانحراف نفيسة، كان يجب على نجيب محفوظ أن يُخرج نفيسة من سجن شقة الأسرة، فهي تقضي أغلب أوقات حياتها حبيسة جدران الشقة، وخاصة أنها تعمل بالخياطة في شقة الأسرة، فكيف ستنحرف إذا لم تخرج إلى الحياة خارج هذه الشقة، وليس هذا فقط، بل يجب أن تقضي وقتًا كافيًا بعيدًا عن هذه الشقة، ولكن كيف يتأتى لها هذا، وخاصة أن أمها شخصية قوية وصارمة، وكذلك أخواتها . وحل نجيب محفوظ هذه الاشكالية بأن جلب لها عمل حياكة لعروس في منزل هذه العروس، فأصبح هناك ما يبرر خروجها من البيت وقضاء أوقات كثيرة بعيدة عنه.

وقد نجح المؤلف في حبكة شخصية نفيسة؛ حيث أعطى للقارئ المبرر الكاف لانحرافها، فعندما أخطأت مع سلمان جابر سلمان، جعل الأخير يحوم حولها ويرمي شباكة عليها، فقد نجح في إقناعها أنه سيتزوجها حتمًا، كما أقنعها بأن لقائهما في شقة بمفردهما أضمن لهما وأفضل، حتى لا يراها أحد أخوتها؛ فيكون عقابها وخيمًا، وقد استدرجها بحجة الحديث فقط في أمور زواجهما، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رسم محفوظ شخصية نفيسة بمقومات شكلية ونفسية يجعلها ترفض لسلمان طلبًا، فهو الرجل الوحيد الذي التفت إليها، وأحبها – كما ادعى

لها – والوحيد الذي أبدى رغبته في الزواج منها، فهو بالنسبة لها فرصة يجب التمسك في تلابيبها:

- فلا يداخلك شك في هذا. سنتزوج كما قلت لك. وهذا عهد مني أمام الله.(١٣٨)
- هذا أفضل. لقد تكلمنا كثيرًا. وأعيد عليك أنك زوجتي. زوجتي ولو ناصبتني الدنيا العداء. هي مسألة وقت لن يطول.(١٣٩)

هكذا تمكن سلمان إقناع نفيسة أنه سيتزوجها، كما كان هو الحبيب الأول وربما الأخير لنفيسة. "واعتقدت أنه ليس سواه، ولن يكون سواه، فتعلقت به بقوة الأمل، وبقوة اليأس، وأحبته بأعصابها ولحمها ودمها، ووجدت فيه غرائزها المشبوبة العارمة أداة تنتشلها من الأعماق"(١٤٠). ولكن اعتقاد نفيسة كان خاطئ؛ فقد غدر بها سلمان، ولم يفي بوعده لها، وتركها وذهب ليتزوج من فتاة أخرى؛ الأمر الذي كادت أن يقضي على نفيسة؛ "حيث أدركت رغم هل الصدمة أنها كادت أن تفضح نفسها فضح نفسها فتماسكت في جهد شديد. لقد انفجرت الصرخة في صدرها بلا وعي وانطلقت من فيها دامية. ولم تعد تستطيع أن تتابع حديث المرأتين وشعرت بأنها تموت موتًا سريعًا منقضًا"(١٤١).

وهكذا قضي نجيب محفوظ على آخر أمال نفيسة في أن تتزوج، فقد أصبحت غير صالحة للزواج بفقدها عذريتها، كما أنها لا تستطيع أن تبوح لأمها أو لمخلوق بسرها؛ لأن نهايتها ستكون القتل لا محالة سواء على يد أمها أو من أخوته، كما أنها شعرت بمرارة سامة ويأسًا مميتًا، وشعورًا معذبا بالوحشة، كأنها غريبة بين أهلها، وشاذة عن المخلوقات، كما شعرت أيضًا بظلم طاغ بعث في نفسها رغبتين متناقضتين تناوبتاها تناوبًا متواصلًا، رغبةً في التمرد والجموح، ورغبةً في الاستزادة من الظلم والتعذيب حتى الموت. وبناء عليه أوجد لها المؤلف المجال للانحراف، وخاصة أنه جعلها تتذوق طعم عناق الرجال، بالإضافة إلى أنه جعلها أنثى شديدة الرغبة الجنسية:

- لا أحب الانتظار مثلك، ولكني لا أحب هذا أيضًا.
- (بمكر) كاذبة.. تحبينه وتحبينه.. هل نسيت.. ؟ محال..
- لا أذكر شيئًا..
- لن أنسى ما حييت!.. أنت غاية في الحرارة والحياة كأن حرارتك لا تزال تلفحني..(١٤٢)

مهَّد المؤلف طريق الانحراف أمام نفيسة؛ فهي لن تخسر أكثر مما خسرته، وليس ثمة شيء تخاف عليه. وهنا يتبادر سؤال: هل كانت نفيسة ضحية لليأس والفقر؟ ، ويجيب عن هذا

السؤال المؤلف نفسه في ثنايا سرده لروايته بقوله: "على أن الأمر لم يكن مجرد يأس فحسب، فهناك هذه الرغبة المشبوبة التي تشتعل في دمها ولا حيلة لها فيها، وكلما استنامت إلى قبضة اليأس شكتها في الأعماق كشوكة مستعرة، هذه الرغبة وحدها تأبى عليها أن تعتزل الحياة وتتوارى حتى كرهتها فيما تكره من حياتها، بيد أنها لم تعترف بها أمام شعورها، وأنكرتها، وقالت لنفسها إنها ترضى الهوان في سبيل النقود التي تمس حاجة أسرتها إليها، ولم تكن في هذا كاذبة، فإنه حق لا شك فيه، ولكنها صارحت نفسها بحقيقة وتجاهلت الأخرى، وسرها – إن كانت ثمة سرور – أن تبدو لعينيها شهيدة، وضحية لليأس والفقر"(١٤٣). ومن السطور السابقة تستنتج الباحثة أن نفيسة ليست ضحية لليأس والفقر فقط، بل كانت ضحية للرغبة المشبوبة التي تشتعل في دمها ولا تجد من يطفئها في الحلال، ولن تجد، لأنها لم تعد أهلًا لذلك. وبدأت نفيسة تهتم بمظهرها اهتمامًا ملحوظًا وبالفعل استجابت لأول شخص غازلها:

- ومن أدراك أني وقعت؟!
- (ضحك وقال) سنرى ما يحدث في صحراء ألماظة..(١٤٤).

وذهبت نفيسة معه إلى صحراء ألماظة، ومارست معه الجنس في سيارته في أحضان ظلام ليل صحراء ألماظة، وبعد أن انتهيا قام بتوصيلها إلى أقرب مكان مناسب لها، ونزلت من السيارة، ومد يده لها بقطعة نقود معدنية من فئة العشرة قروش وهو يقول لها: "هذا يكفي لمرة واحدة"(١٤٥)؛ ولكنها لم تأخذها منه، ليس لشعورها بقلة المبلغ ولكن لأنها لم تفعل ما فعلته من أجل المال ولكن من أجل المتعة فقط، "ولما رأى جمودها ترك القطعة الفضية عند قدميها وانطلق بالسيارة مخلفًا وراءه ذيلًا من دخان خانق، وقرقرة مزمجرة. وركبها جنون غضب أعمى فتسمرت في موقفها وجسمها ينتفض"(١٤٦). وغضب نفيسة ليس من تركه للعشرة قروش عند قدميها، أو لشعورها أنها أصبحت عاهرة تمنح جسدها لمن يدفع، ليس هذا فقط، بل لأن الرجل تركها وانصرف دون أن يحدد لها موعد آخر؛ حيث حدثت نفسها بحسرة قائلة: "لم يتكلف موعدًا آخر. مرة عابرة. كأنني.. كأنني .. رباه ، مرة عابرة. ثم يرمي لي بنصف ريال!"(١٤٧).

وهكذا بدأ طريق الانحراف الفعلي لنفيسة، الذي نجح في تمهيده لها نجيب محفوظ بشكل رائع وحبكة أكثر روعة؛ بحيث لم يترك لها طريقًا غيره لتسلكه. وبالفعل بدأت نفيسة تمارس الجنس بمقابل وبدون مقابل، وحاولت أن تجد لنفسها مبررًا لانحرافها هذا، "وأن تقول لنفسها إنها إنما ارتضت تلك الحياة للحصول على النقود التي أقامت بها أود أسرتها في أكلح ساعات حياتها، وهذا حق ولكنه ليس الحق كله؛ فهنالك أيضًا الرغبة المعذبة واليأس القاتل الحق كله؛

فهنالك أيضًا الرغبة المعذبة واليأس القاتل. وكم ودت في ساعات يأس لو تموت هذه الرغبة ولو تموت هي بموتها، ولكنها كانت تزداد رغبة وانحدارًا"(١٤٨)

ومن هنا تستنتج الباحثة أن نجيب محفوظ بنى شخصية نفيسة بشكل محكم؛ لتخدم حبكة روايته.

شخصية "الأم"

وصفها نجيب محفوظ في سرده لشخصيتها بأنها ذات جسد نحيل وقصير، ووجه نحيل بيضاوي، وذات أنف قصير وغليظ وذقن مدبب، وقد رسم الحزن والهم ملامحهما على وجهها، فلم يبق من حيويتها إلا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم، وعلى أنها شخصية قوية، حادة الطباع ، ويتضح هذا أيضًا من مواقفها تجاه أبنائها، فمثلًا عندما أرادت أن تُخرج حسين وحسنين من غرفة أبيهما الميت على سرير الموت أمرتهما بلهجة حازمة قائلة: "اخرجا"(١٤٩). ويصفها ابنها حسنين في موضع آخر قائلًا: "وليس هذا عجيبًا فالشدة مركبة في طبعها، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح!"(١٥٠).

وقد استطاعت الأم أن تحافظ على ترابط أسرتها بفضل شخصيتها القوية؛ لأن الأب كان طيبًا ومتسامحًا مع أبنائه أكثر مما ينبغي. "كانت دائمًا قوية ، وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب"(١٥١). كما أنها تتمتع بعزة نفس وكرامة كبيرتين، ويتضح هذا من عدم استطاعتها من طلب المساعدة المادية من صديق زوجها المقتدر ماديًا أحمد بك يسري، على الرغم من أنها لم تكن تملك سوى جنيهين ، فقط تركهما لها زوجها المرحوم، وعلى الرغم من أنه هو الذي عرض عليها المساعدة؛ ورغم ذلك تعففت ورفضت بكبرياء ، حيث "عقل الحياء لسانها فسكتت قليلا ثم قالت بصوت منخفض: أحمد الله على الستر. بوسعي أن أنتظر قليلًا"(١٥٢). كما يؤكد محفوظ هذه السمة في عدة مواضع أخرى من الرواية، ومنها موقفها من وجبة الفطير الذي أرسلته لها جارتها زوجة فريد أفندي؛ حيث أعربت لأبنائها عن استيائها من هذه الهدية؛ لأنها يجب عليها أن ترد الهدية بهدية مثلها، وهي لا تملك ذلك:

- هدية مشكورة ولكن الواجب أن نهدي ما يماثلها عقب العودة من القرافة، فما العمل؟!(١٥٣).

وترى الباحثة أن هذا التصرف طبيعي من سيدة حازمة وقوية تتحمل المسئولية مثل الرجال، وهي تتمتع بقوة وشموخ وعزة نفس الرجال، فهي التي كانت تدير شئون الأسرة وتتحمل العبء الأكبر في تربية الأبناء بعد أن أدركت رخاوة الأب؛ حيث لعبت دور الأب والأم معًا. ولو رسمها نجيب محفوظ بصورة غير ذلك لكان من الطبيعي أن تطلب المساعدة من صديق زوجها

أو من أحدا غيره، أو سلكت مسلك آخر غير سلوك العزة والكبرياء والعفة، وحينئذ ستحل مشكلة الأسرة المادية، ولا مبرر وقتها لانحراف شخصية نفيسة، وبناء عليه لا مبرر لانتحارها ولا مبرر لسلوك حسنين وانتحاره في نهاية الرواية. إذن نجيب محفوظ رسم شخصية الأم بعناية وبرتوش غاية في الدقة حتى يأتي سلوكها مبررًا، وأفعالها تتناسب مع مقومات شخصيتها المادية والاجتماعية، وبالتالي تخرج حبكته الروائية كاملة الأوصاف.

شخصية "الأب"

يدعى الأب كامل علي، موظف حكومي، محبوب من زملائه في العمل ، واتضح ذلك عندما ذهبت زوجته إلى مقر عمله لصرف معاشه؛ فتصارع زملائه لخدمتها إكرامًا له. وبالرغم من عدم وجوده مجسدًا بشخصيته في الرواية، حيث مات قبل بداية أحداث الرواية مباشرة، وهو في الخمسين من عمره، إلا أنه كان مؤثرًا في الرواية، فهو الغائب الحاضر، وليس معنى أنه لم يكن مجسدًا ،أنه ليس من شخصيات الرواية؛ لأن "الشخصية الدرامية بناء متخيل في إطار لغوى لكائن قد يكون له وجود مادى في دراما النص أو غائب كشخصية جودو في مسرحية في انتظار جودو لصمويل بيكيت، وشخصية السيد أبو طالب فى مسرحية الزوبعة لمحمود دياب، وهذا الكائن (الشخصية) فاعل في حركة الدراما، سواء كان لشخصية رئيسية أو ثانوية أو نكرة أو حتى صامتة"(١٥٤).

كان الأب – كامل علي – قد هاجر وهو في حوالي السابعة عشرة من عمره مع جدته من دمياط إلى القاهرة. وكان يعشق الفن والموسيقى؛ ويجيد العزف على العود، وقد جعله نجيب محفوظ هكذا حتى يبرر صداقته بشخصية مثل أحمد بك يسري الذي يهوي الموسيقي ويستمتع بعزف كامل على، ولولا إجادة كامل على للموسيقي وحب أحمد بك يسري لما قامت صداقة بينهما من الأساس، وبالتالي لم يكن يوجد من يساعد حسنين ليصبح ضابط شرطة، وبالتالي لم تكن أحداث رواية بداية ونهاية تقع كما وقعت، بل ربما تغير موضوع الرواية، أو على الأقل كان سيختل بناء الرواية وستضعف حبكتها. ولم يغب عن نجيب محفوظ أن يرد على نقد قد يوجه إليه عن مدى معقولية نشوب صداقة بين موظف ذو شأن ونفوذ كبيرين مثل أحمد بك يسري وموظف صغير مثل كامل علي؟؛ حيث أكدَّ أنها لم تكن صداقة بالمعنى المفهوم للصداقة ولكنها علاقة ود ومحبة ومصلحة، وفي هذا السياق يقول محفوظ: "وقد غاب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقًا للبك بالمعنى الذي يغب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقًا للبك بالمعنى الذي يفهمه البك من الصداقة. ولعله كان صديقًا من أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون أن يعده ندا له، أو صديقًا كسائر البكوات والباشوات"(١٥٥).

وهكذا تستنتج الباحثة أن محفوظ لم يترك شاردة أو واردة في شخصيات الرواية –عينة البحث– إلا وأعطى لها الدليل والبرهان، حتى يصل بحبكته الروائية إلى الكمال.

والأب هو الذي كان يسعى للتقرب من أحمد بك يسري، فهو الذي كان دائم التردد على بيته، وهذا أمر طبيعي؛ لأن كامل علي موظف بسيط ، أما أحمد بك فهو مفتش عظيم بوزارة الداخلية:

– كان والدنا كثير التردد على بيته، أما هو .. إنه رجل عظيم كما ترى..!(١٥٦)

ولم يكن لأسرة كامل علي أقارب – فقد انقطعت صلته بأهله في دمياط – سوى أخت الأم وزوجها فرج سليمان.

شخصية "أحمد بك يسري"

مفتش عظيم بوزارة الداخلية، وصديق حميم للمرحوم كامل علي، يتمتع بجسد طويل وعريض وشارب مفتول بعناية ، ويغالي في العناية بمظهره ؛ حيث يحرص على أن يصبغ شاربه وسوالفه ، ويتعطر بأفخم أنواع العطور، ، ويتسم بالتواضع والاحترام – هكذا وصفه نجيب محفوظ في روايته–، متواضع وأصيل –كما يظهر من سلوكه في الرواية – تخطى الخمسين من عمره. ووجود هذه الشخصية في الرواية – عينة البحث – ضرورية للغاية؛ فكيف كان يتمكن حسنين من دخول حسنين كلية الشرطة لولا وجود هذه الشخصية ذات النفوذ في وزارة الداخلية. وقد جعله نجيب محفوظ غير قادر على مساعدة أسرة صديقه ماديًا، "ولم يكن هذا لبخل مركب في طبعه، ولا لأنه يكره أن يمد يد المساعدة إلى أرملة صديقه، ولكنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شيء لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرته"(١٥٧). وقد أراد له نجيب محفوظ أن يكون مبذرًا، ينفق ببذخ على ملذاته وسهراته، حتى يخدم أحداث روايته ويجعل حبكتها أكثر إقناعًا للمتلقي؛ فعندما ذهبت الأم إلى أحمد بك يسري تشكو إليه ضيق ذات اليد لم يستطع أن يساعدها بالمال؛ لأنه لا يدخر مالًا، ولو كان عكس ذلك لأمدها بالمال اللازم لتعيش هي وأبناءها حياة كريمة، ولم يكن هناك ضرورة فنية أو سبب مقنع لانحراف نفيسة، بل لم تكن هناك رواية من الأساس. كما أن أحمد بك يسري لو لم يكن ذو نفوذ في وزارة الداخلية لما استطاع أن يتوسط لحسنين ليلتحق بكلية الشرطة ويصبح ضابطًا، هذه المهنة التي كانت ضرورية في بناء شخصية حسنين لما تتسم به هذه المهنة من مظاهر العظمة والخيلاء وخاصة عند بعض الشباب المغرورين من أمثال حسنين. فلولا التحاق حسنين بهذه الوظيفة المرموقة لما كان يسلك نفس السلوك مع أخته ومع نفسه في نهاية الرواية، كما أن انحراف نفيسة من أجل جلب النقود لأخيها الضابط لن يكون مبررًا في هذه الحالة.

شخصية "بهية"

شابة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، شديدة الجمال، ذات عينين جميلتين، وجسد جميل ممشوق، وإن كان يميل لقصر بعض الشيء. ويصفها المؤلف أثناء فتحها الباب لحسين وحسنين بقوله: "وفتح الباب عن وجه جميل، مستدير، ممتلئ أبيض مشوب بشحوب خفيف، تزينه عينان زرقاوان صافيتان. وما أن رأت القادمين حتى تراجعت في خفر"(١٥٨). كما يصفها من وجهة نظر حسنين الذي وقع في غرام جمالها بقوله: "الساقان البديعتان، والوجه البدري ذو العينين الزرقاوين. نظرة هادئة رزينة توحي بالثبات لا بالخفة، جمال يبهر وإن شابه شيء من ثقل الدم ولكنه لم يترك أثرًا سيئًا في نفسه"(١٥٩).

وقد رسم محفوظ لبهية صورة كاملة الأوصاف، من حيث الجمال والأدب والحياء والأخلاق، حتى لا يكون هناك مبرر لحسنين أن يتخلى عنها سوى حقارة ونذالة أخلاقة، وتفكيره في مصلحته فقط، مهما كلفه الأمر. ومثال على دماثة أخلاقها أنها لم تستجيب لمطاردة حسنين لها في بادئ الأمر، ونهرته بشدة أكثر من مرة، فعندما سألها عن رد فعلها على رسالة الحب الذي أرسلها لها استاءت منه وقالت له بحدة وبغضب:

– أتذكر هذه الورقة!. يا لها من جرأة غير محمودة لا أوافق عليها..!(١٦٠).

كما أن حسنين نفسه احترم فيها أدبها وأخلاقها؛ حيث وصفها لنفسه: "هي ميالة للقصر، فلو التصقت بها لمس مفرق شعرها ذقني. ولكنها بضة ريانة فتبًّا للمعطف الذي يخفي قسمات هذا الجسم وثناياه، حريصة محافظة. تعجبني بقدر ما تغيظني!"(١٦١). وقد حاول حسنين معها بكافة الطرق والوسائل أن يفوز منها بقبلة ولكنه فشل، وأكدت له أن أمها علمتها أن تصون شرفها وشرف أبيها وزوجها، فتمتم حسنين مع نفسه مغتاظًا من أم خطيبته قائلًا: "بنت الكلب!.. أهي التي قالت لك هذا؟.. القصيرة الماكرة، أفسدتها علي وأفسدت حياتنا. إن الغيظ يقتلني. ماذا أفدت من الخطبة التي تجرعت بسببها تقريعًا ولوما مرا؟! لا شيء. فتأتي عنيدة مجنونة. السبب أمها بنت الكلب "حمالة الحطب""(١٦٢).

شخصية "فريد أفندي"

موظف بسيط في الخمسين من عمره، بدين، متزوج من سيدة جميلة، أنجب منها بهية وسالم، ورث عقارًا في السيدة يدر عليه دخلًا شهريا حوالي عشرة جنيهات، مما جعله ميسور الحال، كريم، وطيب القلب للغاية، وقد وصفه نجيب محفوظ بهذا أثناء سرده لروايته، كما جعله أب لاثنين فقط حتي يعيش حياة معقولة ماديًا، وحتى يكون في مقدوره مساعدة أسرة كامل

على، كما جعل ابنه في مرحله التعليم حتى يكون هناك مبرر أن يدخل حسنين بيته ليعطي درس خصوصي له، وبالتالي يكون هناك مبرر لعلاقة الحب التي نشبت بين حسنين ابنته بهية. كما جعل بهية هي البهية هي الابنة الوحيدة له، حتى يزداد حبه لها ولا يرفض لها طلبها عندما ترغب في الزواج بحسنين، كما جعل زوجته طيبة مثله. كل هذه السمات في شخصية فريد أفندي هدفها مبرر رئيس واحد، وهو تبرير ذهاب فريد أفندي هو وزوجته إلي أم حسن لطلب يد حسنين لابنتهم بهية؛ وحتى لا يتعرض محفوظ لنقد حبكته الروائية ونعتها بأنها غير منطقية وغير محبوكة؛ لأنه كان سيتعرض لهجوم شديد من نقاد وقراء كُثر ،على ذهاب أب ليخطب لابنته، لأن هذا كان عيبًا كبيرًا ومازال عيبًا كبيًرا. وقد نجح نجيب في أن يخرس هذه الألسنة في رسمه لشخصية فريد أفندي بهذا الشكل:

- نينة لم تقل كل شيء. وأؤكد لك أن ثمة ما يدعو حقًّا لحزنك. وما كان بوسعها إلا أن تبقي على صداقة فريد أفندي ومودته، ومن ذا يستطيع أن ينسى جميله ومروءته؟!. قالت له إنها تعد موافقته على طلبك شرفًا كبيرًا، بيد أنها ذكرت له حالنا الذي يعرفه حق المعرفة(١٦٣).

شخصية "سلمان جابر سلمان"

شخصية سلمان أوجدها نجيب محفوظ لتخدم حبكته الدرامية، ولتكون عاملًا مساعدًا لبناء شخصية نفيسة. ورغم ذلك بناها محفوظ بناء محكمًا، فجعله دميمًا مثل نفيسة، ووضيعًا في شخصيته وفي وظيفته وفي مظهره، حتي لا يجد من النساء أو الفتيات من تبادله الغرام غير نفيسة، فهو "حقير تافه، شيء تعافه النفس، مخادع كذاب"(١٦٤)، أو كما وصفته نفيسة لخطيبته عندما سألتها الأخيرة عليه: "أعرفه أكثر منك!.. لن تعرفيه مثلي قبل أشهر!.. وستجديه حيوانا وغدا"(١٦٥) . كما جعله حقيرًا، تابعًا لأمه وأبيه، ولا شخصية له:

- أبي ، أبي ، أرجل أنت أم امرأة؟!
- (بذل وخنوع وتسليم) رجل ولكن كعدمه!
- يعني امرأة!
- سامحك الله. لا أسمع إلا نهرًا وتقريعًا سواء منك أو منه. ماذا أصنع؟(١٦٦)

شخصية "حسان حسان"

شخصية أوجدها المؤلف ليخدم بها مقوما شخصية حسين، وإن كان منحها كل مقومات الشخصية من عامل مادي واجتماعي ونفسي، ووجود هذه الشخصية في الرواية هامة بلا ريب لتدعيم مقومات شخصية حسين، ومن ثم تدعيم بناء الحبكة الروائية.

شخصية "الست زينب (صاحبة البيت)"

هي شخصية لم يرسم لها المؤلف مقومات الشخصية الدرامية الواضحة، سوى أنه ذكر في ثنايا سرده للرواية أنها سيدة طيبة. والحقيقة أنها شخصية مساعدة في بناء مقومات شخصيات الرواية – عينة البحث – وخاصة شخصية نفيسة. فخير فعل المؤلف بها؛ لأن العامل النفسي لهذه الشخصية وسلوكها لا يستدعي معرفة العاملين الآخرين لتكوين أي شخصية، وهما:العامل المادي والعامل الاجتماعي، ولو كان ذكرهما المؤلف لزادت الرواية سطورًا هي في غنى عنها.

شخصية "أخت الأم"

امرأة حقودة، حيث كانت تحقد على أختها بأنها متزوجة من موظف أما هي فمتزوجة من عامل في محلج قطن، وأن أختها تقيم في القاهرة وهي تعيش في الريف، وأن أبناءها عمال أما أبناء الأخت فمتعلمين في المدارس؛ لذلك كانت الأخت لا ترتاح لها.

بعد تحليل شخصيات الرواية تستنتج الباحثة أن جميع شخصيات الرواية – عينة البحث – أبدعها نجيب محفوظ لكي تخدم على شخصية البطل الأول في هذه الرواية، وهي شخصية حسنين، وبالتحديد لكي يصل في النهاية بنتيجة طبيعية ومنطقية لسلوك حسنين في نهاية الرواية. وحتي تصبح حبكته الروائية مقنعة ومبررة.

دلالة السماء

حسن وحسين وحسنين، الثلاثة أبناء كامل علي بالترتيب من ناحية السن، ولم تخل أسمائهم المتشابهة من دلالة، فالمؤلف تعمد بالتأكيد في أن يجعل أسمائهم متشابهة بدرجة كبيرة، وترى الباحثة أن نجيب محفوظ أراد أن يقول أنه بالرغم أن الثلاثة شباب مشتركين في كل العوامل الوراثية والاجتماعية، وحتي الأسماء إلى الثلاثة مختلفين في العامل النفسي، وهو هنا يكسر كل مقومات الشخصية التي اتفق عليها علماء النفس وخبراء الدراما، ويرجع هذا الاختلاف إلى عامل التربية، فنجيب محفوظ أراد أن يقول أن التربية هي العامل الرئيس في سلوك الشخصية،

الوراثة والتربية في بناء الشخصية في رواية بداية ونهاية

أكد نجيب محفوظ في أكثر من موضع على أهمية العامل الوراثي وعلى أهمية التربية في سلوك الأبناء، فمثلًا، يذكر أن نفيسة ورثت شكل الوجه من أمها، وورثت الطول من أبيها، "فلم تكن تختلف عن أمها إلا في طولها المماثل لطول شقيقها حسنين. كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها"(١٦٧). أما الأبناء فقد ورثوا الشكل الحسن من أبيهم، وعن هذا الأمر يقول محفوظ في وصفه للأبناء الذكور: "لقد ورثوا

خلقة أبيهم"[١٦٨]. وفي موضع من الرواية يذكر حسن أمه بقوله: "وإني أذكرك بأني الوحيد الذي لا أكاد اختلف طولًا أو عرضًا عن المرحوم أبي"[١٦٩]، ويصف حسنين أخاه حسين بقوله: "إنه كأمه جاد صارم"[١٧٠]. كما أن ملامح بهية تشبه ملامح أمها؛ حيث تميل قامتها نحو القصر، وبشرتها شديدة البياض مثلها، وكذلك لون عينيها الزرقاوين مثل لون عين أمها. أما عن أهمية التربية في هذا الصدد فيقول نجيب محفوظ في روايته –عينة البحث – "والأبناء أنفسهم مثال حي على التباين بين الأب والأم، فكان حسن شاهدًا تعيسًا على رخاوة الأب وتدليله، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها"[١٧١] . ويرجع حسين سلوك أخيه إلى سوء تربية أبيه له؛ حيث قال: "ففي ظني أنه لولا المرحوم أبي لأمكن أن تجعل منه رجلًا غير الرجل"[١٧٢]، وأكد هذا الرأي حسنين بقوله: "كان حسن طفلًا حاذقًا شاطرًا، وكان أبي يحبه أكثر من أي شيء في الوجود، ثم بدا وكأنه انقلب له عدوًا"[١٧٣] ، كما قال أيضا في هذا الأمر:

– وأسفاه، كان حسن ضحية للمرحوم والدنا، وكان والدنا ضحية لضيق ذات اليد![١٧٤]

وفي موضع آخر من الرواية تؤكد الأم على أن ابنها حسن كان ضحية التربية الخاطئة؛ حيث "كانت تلوم نفسها وأباه على تلفه، ويعذبها أشد العذاب أنه كان ضحية للتهاون والفقر"[١٧٥].

وهكذا نرى أن نجيب محفوظ كان حريصًا أن يؤكد على أهمية عامل الوراثة في تكوين مقومات شخصياته الروائية، لتكون مطابقة للعلم والواقع. كما كان حريصًا كذلك على التأكيد على دور التنشئة الاجتماعية في تكوين شخصية الفرد.

وبعد أن قامت الباحثة بتحليل شخصيات الرواية – عينة البحث – ترى أن نجيب محفوظ كان مولع بأن يضع شخصيات روايته هذه تحت مجهر التحليل النفسي؛ ليتخذ من سلوكها الإنساني أحداثًا منطقية ومعقولة لبناء حبكته الروائية. كما أن موضوع روايته هذه هي فلسفته للحياة في أدبه التي تقوم على المشروع الإنساني محكوم عليه بالإخفاق من دون أي استثناء في أي عمل من أعماله، وأن شعور الإنسان بهذا الإخفاق هو شعور حتمي، النتيجة تحدث بصرف النظر عن المقدمات التي تقود إليها وهو يرى أن كل شخصية ترتب نفسها منطقيًا لأن نظرته أعمق وأعلى وله مصطلحاته الخاصة. أما في الشخصية أو الحوار فهو يستخدم الرمز الشفاف الذي يقوم على التجسيد والتشخيص، والفلسفة التي تقوم عليها رواياته وهي التشوق والرغبة المحمومة في الصلة الحميمة مع معنى الوجود، وفكرته باستمرار أن الإنسان لابد أن يرتبط بالعالم وهو يعيش نظامًا دقيقًا جدًّا، فهو يرى أن الموضوعية هي سبيل الحرية، وأن الذاتية هي سبيل العبودية والانسلاخ عن العالم"[١٧٦]. والهم الرئيس الذي يشغل نجيب محفوظ في أدبه هو الإجابة على سؤال دائم طرحه في أغلب أعماله الروائية، ومنها رواية بحثنا هذا وهو "ما هي حياتنا وما يجب أن تكون عليه؟"[١٧٧].

نتائج البحث:

- رواية بداية ونهاية مبنية على شخصياتها وعلى حبكتها أيضًا.
- نجح نجيب محفوظ أن يجعل كل شخصية فى روايته "بداية ونهاية" تسير حسب طبيعتها الخاصة، ولكن في حدود الوظيفة التي تبين صلاتها مع الشخصيات الأخرى حبًّا أو بغضًا، ولاءً أو نفورًا، وتعاونًا على البناء أو نزوعًا إلى الفرقة. وقد ظهرت شخصيات الرواية شبيهة تمامًا بالواقع الكبير، ولكن بشكل فنيّ مكثف.
- تمتاز رواية بداية ونهاية بالدقة في التصميم والبناء، وخاصة في طريقة السرد وبناء شخصياتها.
- كل تفاصيل الرواية عينة البحث هي تفاصيل موضوعية تنصهر في بوتقة واحدة تشكل في النهاية الموضوع الرئيس للرواية.
- أبرزت الرواية –عينة البحث– أهمية عاملي الوراثة والتنشئة الاجتماعية في تكوين شخصية الفرد.
- استطاع نجيب محفوظ في روايته عينة البحث أن يروع عقول القراء بأسلوبه الشيّق والرصين وكلماته السهلة والرقيقة، وأصالة تعبيره عن حقائق النفس البشرية؛ التي توقف التفكير وتشل العقل.
- استطاع نجيب محفوظ أن يغوص في أعماق النفس البشرية لشخصيات روايته واستخرج مكنوناتها للقارئ.
- رسم نجيب محفوظ شخصية الأم بعناية وبرتوش غاية في الدقة.
- نجيب محفوظ لم يترك شاردة أو واردة في شخصيات الرواية إلا وأعطى لها الدليل والبرهان، حتى يصل بحبكته الروائية إلى الكمال.
- جميع شخصيات الرواية – عينة البحث – أبدعها نجيب محفوظ لكي تخدم على شخصية حسنين، لكي يصل في النهاية بنتيجة طبيعية ومنطقية لسلوكها في نهاية الرواية. وحتي تصبح حبكته الروائية مقنعة ومبررة.
- الطموح الجامح والغرور والتسرع وعدم الصبر من سمات شخصية حسنين الذي كانت سببًا في شقائه وشقاء أسرته في نهاية الرواية، عينة البحث.
- أوضح نجيب محفوظ بأن حسنين لا يهمه حياة أخته نفيسة ولا شرفها بقدر ما يهمه كلام الناس ومظهره أمامهم.

- إن نجيب محفوظ بنى شخصيات روايته "بداية ونهاية "حتي يبني بها حبكته الروائية.
- وقع نجيب محفوظ في خطأ بسيط في رسمه لشخصية حسنين.
- نجيب محفوظ بنى شخصية نفيسة لتخدم حبكة روايته.
- لم تكن نفيسة ضحية الفقر واليأس فقط، بل كانت ضحية رغبتها الجنسية المشتعلة أيضًا.
- نجح في وصف الظاهر من شخصيات روايته وما يجيش بداخلها نجاحًا مبهرًا.
- اعتمد نجيب محفوظ في سرده لروايته هذه – عينة البحث – على تقنية الأصوات المتعددة، وإن كان الاعتماد الرئيس في السرد علي صوت المؤلف ذاته.
- بنى نجيب محفوظ شخصية نفيسة لتخدم حبكة روايته.
- كان نجيب محفوظ مولعًا بأن يضع شخصيات روايته ، عينة البحث، تحت مجهر التحليل النفسي؛ ليتخذ من سلوكها الإنساني أحداثًا منطقية ومعقولة لبناء حبكته الروائية .
- الهم الرئيس الذي يشغل نجيب محفوظ في أدبه هو الإجابة على سؤال دائم طرحه في أغلب أعماله الروائية، وهو "ما هي حياتنا وما يجب أن تكون عليه؟.
- اتّسم أدب محفوظ بتجسيد الشخصيات المصرية بشكل أقرب ما يكون إلى واقعها الحقيقي.

المصادر :

- نجيب محفوظ: بداية ونهاية، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

المراجع:

١- إبراهيم حمادة: معجم المصطلحات الدرامية، القاهرة، دار المعارف.
٢- أحمد العشري: البطل في مسرح الستينيات بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
٣- أحمد عبد العزيز: نحو نظرية جديدة للأدب المقارن، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ٢٠٠٢، ص ٢٠٧.
٤- أحمد عبد الخالق: استخبارات الشخصية، القاهرة، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، ١٩٨٩.
٥- أحمد هيكل: الأدب القصصي والمسرحي في مصر، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٩
٦- آرثر آسا بيرغر: وسائل الإعلام والمجتمع، ترجمة: صالح خليل أبو إصبع، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس ٢٠١٢.
٧- أرسطو: فن الشعر، ترجمة: إبراهيم حمادة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٩.
٨- أمينة رشيد: الأدب المقارن، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.
٩- إكرامي فتحي: جماليات اللغة وبنية السرد الروائي.. نجيب محفوظ نموذجًا، بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٦.
١٠- توفيق الحكيم: أدب الحياة، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٥٩.
١١- جابر عصفور: تيارات نقدية محدثة، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩.
١٢- جان بول سارتر: ما الأدب، ترجمة: محمد غنيمي هلال، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠.
١٣- حسن يوسف، جماليات المكان.. المقهى عند نجيب محفوظ نموذجًا، القاهرة، مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
١٤- راجية أحمد قنديل: صورة إسرائيل في الصحافة المصرية .. أعوام ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٨، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة، ١٩٨١.
١٥- رشاد رشدي: فن كتابة المسرحية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨.
١٦- رضا غالب: الممثل والدور المسرحي، القاهرة، أكاديمية الفنون، د.ت.
١٧- رمضان بسطويسى: فيلسوف الحارة ، القاهرة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ع ١٩٥، منتصف سبتمبر ٢٠٠٦م.
١٨- سمير حسين: بحوث الإعلام .. دراسات في مناهج البحث الإعلامي، ط٣، القاهرة ، عالم الكتب، ١٩٩٩.
١٩- شوقي بدر يوسف: نجيب محفوظ والرواية الصوتية .. أفراح القبة.. نموذجًا، القاهرة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ع ١٩٥، منتصف سبتمبر ٢٠٠٦.
٢٠- صلاح فصل: الرواية الجديدة، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢.
٢١- عبد الرحمن أبو عوف: التحولات الاجتماعية وأثرها في تشكيل النص الأدبي تطبيقًا على الرواية المصرية منذ نشأتها وحتى الآن، القاهرة، سلسلة أبحاث المؤتمرات١٨.. ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي.. الرواية والتاريخ، الأبحاث، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨.
٢٢- عبد الرحمن أبو عوف: مراجعات في القصة والرواية، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٤.
٢٣- عبد العزيز محمود: أثر تفاعل نوع التعزيز وسمات الشخصية والمستوى الاجتماعي علة تلاميذ الحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي، القاهرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الزقازيق، كلية التربية، ١٩٨٧م.
٢٤- فاطمة موسى: سحر الرواية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠.
٢٥- فاطمة موسى محمود: قاموس المسرح.. الجزء الثانى، مرجع سابق، ٢٠٠٨.
٢٦- فؤاد قنديل: فن كتابة القصة ، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢.
٢٧- ماجدة مراد: شخصياتنا المعاصرة بين الواقع والدراما والتليفزيونية، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٤م.

٢٨- ماري كارمن بوبيس: سيمولوجيا المسرح ، ترجمة: أحمد عبدالعزيز، القاهرة، دار النصر للتوزيع والنشر، ٢٠٠٤.
٢٩- محمد عبد الحميد: البحث العلمي في الدراسات الإعلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٠م
٣٠- محمد سلماوي: نجيب محفوظ.. وطني مصر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠.
٣١- محمد شبل الكومي: مبادئ النقد الأدبي والفني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٣٢- محمد كشيك: حوار مع عميد الرواية العربية، القاهرة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع ١٩٥، منتصف سبتمبر ٢٠٠٦م.
٣٣- محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨، يوليو ٢٠٠٧م.
٣٤- لاجوس آجرى: فن كتابة المسرحية، ترجمة: درينى خشبة، الكويت، دار سعاد الصباح، د.ت.
٣٥- يوسف الشاروني: نماذج من الرواية المصرية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.
٣٦- يوسف نوفل: فن القصة عند محمد عبد الحليم عبد الله، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٦.
٣٧- يحيى محمد محمود القفاص: صورة المجتمع المصري في أدب نجيب محفوظ بين الواقع والخيال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧.

---

[١] – رمضان بسطويسى: فيلسوف الحارة ، القاهرة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ع ١٩٥، منتصف سبتمبر ٢٠٠٦م، ص٨.

[٢]– شوقي بدر يوسف: نجيب محفوظ والرواية الصوتية .. أفراح القبة.. نموذجًا، القاهرة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ع ١٩٥، منتصف سبتمبر ٢٠٠٦م، ص٥٢.

[٣] – عبد الرحمن أبو عوف: التحولات الاجتماعية وأثرها في تشكيل النص الأدبي تطبيقًا على الرواية المصرية منذ نشأتها وحتى الآن، القاهرة، سلسلة أبحاث المؤتمرات١٨.. ملتقي القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي.. الرواية والتاريخ، الأبحاث، ج٢، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٨، ص ٩٥.

[٤] – لاجوس آجرى: فن كتابة المسرحية، ترجمة: درينى خشبة، الكويت، دار سعاد الصباح، د.ت، ص ١٠٦.

[٥] – محمد عبد الحميد: البحث العلمي في الدراسات الإعلامية ، القاهرة ، عالم الكتب ، ٢٠٠٠م، ص ٢١٦ .

[٦] – سمير حسين: بحوث الإعلام .. دراسات في مناهج البحث الإعلامي، ط٣، القاهرة ، عالم الكتب، ١٩٩٩، ص٢٣٣.

[٧] – راجية أحمد قنديل: صورة إسرائيل في الصحافة المصرية .. أعوام ١٩٧٢ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٨، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة، ١٩٨١، ص٤.

[٨] – ماري كارمن بوبيس: سيمولوجيا المسرح ، ترجمة: أحمد عبدالعزيز، القاهرة، دار النصر للتوزيع والنشر، ٢٠٠٤، ص٢٨٣.

[٩]– ماجدة مراد: شخصياتنا المعاصرة بين الواقع والدراما والتليفزيونية، القاهرة، عالم الكتب، ٢٠٠٤م، ص١١.

[١٠] – المرجع السابق، ص١١.

[١١] – عبد العزيز محمود: أثر تفاعل نوع التعزيز وسمات الشخصية والمستوى الاجتماعي علة تلاميذ الحلقة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي، القاهرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الزقازيق، كلية التربية، ١٩٨٧م، ص ٤١.

[١٢] – أحمد عبد الخالق: استخبارات الشخصية، القاهرة، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية، ١٩٨٩، ص٦.

[١٣] – إبراهيم حمادة: معجم المصطلحات الدرامية، القاهرة، دار المعارف، ص ٩٣.

[١٤] – يوسف نوفل: فن القصة عند محمد عبد الحليم عبد الله، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٦، ص٥.

[١٥] – نجيب محفوظ: بداية ونهاية، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م، ص ٥٦.

[١٦] – صلاح فصل: الرواية الجديدة، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص ٢٧.

[١٧] – حاتم عبد العظيم: المقالات النقدية والدراسات، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠١٠، ص ١٥٧.

[١٨] – حسن يوسف، جماليات المكان.. المقهى عند نجيب محفوظ نموذجًا، القاهرة، مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ص١٥٣.

[١٩] – أحمد هيكل: الأدب القصصي والمسرحي في مصر، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٧٩، ص١١٥.

[٢٠] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٣٦.

[٢١] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ١٣٥.

[٢٢] –المصدر السابق، ص ١٣٦.

[٢٣] – نفسه، ص ١٣٦.
[٢٤] – نفسه، ص ١٣٨.
[٢٥] – نجيب محفوظ ، ص ١٧٧ – ١٧٨.
[٢٦] – المصدر السابق، ص ١٧٨.
[٢٧] – نفسه، ص ٢٢٥.
[٢٨] – نفسه ، ص ٢٣٥.
[٢٩] – نجيب محفوظ ، ص ٢٤٣.
[٣٠] – المصدر السابق، ص ٢٧٧.
[٣١] – نفسه ، ص ٣٠٧.
[٣٢] – نفسه، ص ٣١٠.
[٣٣] – نفسه، ص ٣٢٢.
[٣٤] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية ، ص ٣٧٧.
[٣٥] – المصدر سابق، ٦٤.
[٣٦] – نفسه ، ص ٣٥٥.
[٣٧] – نفسه، ص ١٤٣.
[٣٨] – نفسه، ص ١٤٤.
[٣٩] – نفسه ، ص ١٩٥.
[٤٠] – رشاد رشدي: فن كتابة المسرحية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ٧٣.
[٤١] – أحمد عبد العزيز: نحو نظرية جديدة للأدب المقارن، القاهرة، مكتبة الأنجلو، ٢٠٠٢، ص ٢٠٧.
[٤٢] – نجيب محفوظ، المصدر السابق، ص ١٢.
[٤٣] – المصدر السابق، ص ١٣.
[٤٤٤٤] –نفسه .
[٤٥] – نفسه ،ص ١٠ –١١.
[٤٦] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر سابق، ص ص ١٦–١٧.
[٤٧] – أمينة رشيد: الأدب المقارن، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١، ص ٧٧.
[٤٨] – إكرامي فتحي: جماليات اللغة وبنية السرد الروائي.. نجيب محفوظ نموذجًا، بورصة الكتب للنشر والتوزيع، ٢٠١٦، ص١٥.
[٤٩] – محمد كشيك: حوار مع عميد الرواية العربية، القاهرة، مجلة الثقافة الجديدة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ع ١٩٥، منتصف سبتمبر ٢٠٠٦م، ص٧٧.
[٥٠] – المصدر السابق، ص ١١.
[٥١] – نفسه ص ١٠.
[٥٢] – نفسه .
[٥٣] – آرثر آسا بيرغر: وسائل الإعلام والمجتمع، ترجمة: صالح خليل أبو إصبع، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مارس ٢٠١٢، ص ص ١٥٨ – ١٥٩.
[٥٤] – فاطمة موسى محمود: قاموس المسرح.. الجزء الثانى، مرجع سابق، ٢٠٠٨، ص ٥٥٢.
[٥٥] – محمد شبل الكومي: مبادئ النقد الأدبي والفني، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ص ٩٩.
[٥٦] – محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨، يوليو ٢٠٠٧م، ص ١٣٤..
[٥٧] – جابر عصفور: تيارات نقدية محدثة، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط٢، ٢٠٠٩، ص ٢٩٧.
[٥٨] – ماجدة مراد، مرجع سابق، ص١٠٥.
[٥٩] – توفيق الحكيم: أدب الحياة، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٥٩، ص ٣٥.
[٦٠] – جان بول سارتر: ما الأدب، ترجمة: محمد غنيمي هلال، القاهرة، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ص ٧٤.
[٦١] – فاطمة موسى: سحر الرواية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص ٥٣.
[٦٢] – محمد سلماوي: نجيب محفوظ.. وطني مصر، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٠، ص٤٥.

[٦٣]– يوسف الشاروني: نماذج من الرواية المصرية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص٢٥.
[٦٤] – فؤاد قنديل: فن كتابة القصة ، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢، ص ٤٤.
[٦٥] – مارى كارمن بوبيس: سيمولوجيا المسرح ، ترجمة: أحمد عبدالعزيز ، القاهرة ، دار النصر للتوزيع والنشر ، ٢٠٠٤ ، ص ٢٧.
[٦٦] – نجيب محفوظ: بداية ونهاية، ص ٧.
[٦٧] – المصدر السابق، ص ١٠.
[٦٨] – نفسه ،ص ١٧.
[٦٩]– نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر سابق، ص ١٩.
[٧٠] – المصدر السابق، ص ١٩.
[٧١] – نفسه، ص ٢٨.
[٧٢] – نفسه، ص ٣٧.
[٧٣] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية، ص ٢٨٥.
[٧٤] – المصدر السابق، ص ١٨٧.
[٧٥] – نفس المصدر السابق، ص ١٨٧.
[٧٦] – نفسه ، ص ص ١٨٧ –١٨٨.
[٧٧] – نفسه، ص ٢٠٦.
[٧٨] – نفسه، ص ٢٤٤.
[٧٩] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية ، ص ٢٧٨.
[٨٠] – المصدر السابق، ص ٣٠٢.
[٨١] – نفسه، ص ٢٧٩.
[٨٢] – نفسه، ص ٢٧٧.
[٨٣] – نفسه، ص ٢٠٦.
[٨٤] – نفسه، ص ٢٤٥.
[٨٥] – نجيب محفوظ بداية ونهاية ، ص ٢٥٣.
[٨٦] – المصدر السابق، ص ٢٤٦.
[٨٧] – نفسه، ص ٢٤٦.
[٨٨] – نفسه ، ص ٦١.
[٨٩] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ١٧٩.
[٩٠] – المصدر السابق، ص ٣١٣.
[٩١] – نفسه، ص ٣١٥.
[٩٢] – نفسه ، ص ٣٢٠.
[٩٣] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ،ص ٣٣٤.
[٩٤] – يحيى محمد محمود القفاص: صورة المجتمع المصري في أدب نجيب محفوظ بين الواقع والخيال، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧. ص ٣٦٨.
[٩٥] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر سابق، ص ٣٤١.
[٩٦] – نفسه ، ص ٣٤٧.
[٩٧] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ٣٥٢.
[٩٨] – المصدر السابق، ص ٣٥٥.
[٩٩] – نفسه، ص ٣٦١.
[١٠٠] – نفسه، ص ٣٦٢.
[١٠١] – نجيب محفوظ ، بداية ونهاية، ص ٣٦٥.
[١٠٢] – المصدر السابق، ص ٣٦٥.
[١٠٣] – نفسه ص ٣٦٦.

[١٠٤] – نفسه ، ص ص ٣٧٥– ٣٧٦
[١٠٥] – نفسه ، ص ٣٦٦.
[١٠٦] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٣٧٢.
[١٠٧] – المصدر السابق، ص ٣٧٥.
[١٠٨] – نفسه ، ص ص ٣٧٦– ٣٧٧.
[١٠٩] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر سابق، ص ص ١٦–١٧.
[١١٠] – أرسطو: فن الشعر، ترجمة: إبراهيم حمادة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٩، ص ١٣٣.
[١١١] – أحمد العشري: البطل في مسرح الستينيات بين النظرية والتطبيق، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢، ص ١٢.
[١١٢] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر سابق، ص ٢٧٩.
[١١٣] – المصدر السابق، ص ٨٨.
[١١٤] – نفسه ، ص ٣٤.
[١١٥] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية ، ص ٣٦.
[١١٦] – المصدر السابق، ص ص ٣٧ – ٣٨.
[١١٧] – نفسه ، ص ٦٣.
[١١٨] – نفسه، ص ٣٢٩.
[١١٩] – نفسه ، ص ٢٠٠.
[١٢٠] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية، ص ٢٠٦.
[١٢١] – المصدر السابق، ص ص ٣٢٥ –٣٢٦.
[١٢٢] – نفسه، ص ٣٢٨.
[١٢٣] – نفسه، ص ٨.
[١٢٤] – نفسه ، ص ١٤.
[١٢٥] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٤٣.
[١٢٦] – المصدر السابق، ص ١٦.
[١٢٧] – نفسه، ص ٤٣.
[١٢٨] – نفسه، ص ٢٢.
[١٢٩] – لاجوس آجرى: فن كتابة المسرحية ، ترجمة : دريني خشبة ، دار سعاد الصباح، د.ت، ص ١٠١ .
[١٣٠] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ٢٦.
[١٣١] – المصدر السابق، ص ٤٢.
[١٣٢] – نفسه ، ص ٢٩٣.
[١٣٣] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ٢٩٤.
[١٣٤] – المصدر السابق، ص ٢١.
[١٣٥] – نفسه ، ص ٥٣.
[١٣٦] – يحيى محمد محمود القفاص، مرجع سابق، ص١١٠.
[١٣٧] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر سابق، ص ٧٩.
[١٣٨] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ١٠٣.
[١٣٩] – المصدر السابق، ص ١١٠.
[١٤٠] – نفسه ، ص ١٠٣.
[١٤١] – نفسه ، ص ١٣١.
[١٤٢] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية ، ص ١٢٣.
[١٤٣] – المصدر السابق، ص ١٦٩.
[١٤٤] – نفسه ص ١٧١.
[١٤٥] – نفسه، ص ١٧٣.

[١٤٦] – نفسه ، ص ١٧٣.
[١٤٧] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ١٧٣.
[١٤٨] – المصدر السابق، ص ٢٨١.
[١٤٩] – نفسه ، ص ١٢.
[١٥٠] – نفسه، ص ٣٥.
[١٥١] –نفسه ، ص ٢٢.
[١٥٢] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ٣٢.
[١٥٣] – المصدر السابق، ص ٥٠.
[١٥٤] – رضا غالب: الممثل والدور المسرحي، القاهرة، أكاديمية الفنون، د.ت، ص ٤٩.
[١٥٥] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، ص ٣٣.
[١٥٦] – المصدر السابق، ص ١٨.
[١٥٧] – نجيب محفوظ ،بداية ونهاية، ص ٣٢.
[١٥٨] – المصدر السابق، ص ٥٩.
[١٥٩] – نفسه، ص ٦٠.
[١٦٠] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ٨١.
[١٦١] – المصدر السابق، ص ١١٢.
[١٦٢] نفسه، ص ١١٤.
[١٦٣] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ١٠٢.
[١٦٤] – المصدر السابق، ص ١٣٣.
[١٦٥] – نفسه ص ص ١٤٤ –١٤٥.
[١٦٦] – نفسه ، ص ١٣٥.
[١٦٧] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية، مصدر السابق، ص ٢١.
[١٦٨] – المصدر السابق، ص ٢١.
[١٦٩] – نجيب محفوظ، بداية ونهاية ، ص ٤٩.
[١٧٠] – المصدر السابق، ص ٦٣.
[١٧١] – نفسه ، ص ٢٢.
[١٧٢]– نفسه ، ص ٢٠١.
[١٧٣] – نفسه ، ص ٢٤٠.
[١٧٤] – نفسه ، ص ٣٠١.
[١٧٥] – نفسه ، ص ٨٩.
[١٧٦] – رمضان بسطاويسي، مصدر سابق، ص ٩.
[١٧٧] – عبد الرحمن أبو عوف: مراجعات في القصة والرواية، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٤م، ص١٠١.